قصص معاصرة

الوسمية

تأليف

عبد العزيز مشري

دار شهدي للنشر

جاءت الرياح الموسمية

فاستيقظت الفرحة، وجهز أحباب الأرض وسائلهم للوسمية...

فيها: موسم المطر،

وفيها: موسم الزرع،

وفيها نتاج ما يفلحون، وما يعرقون.

(١) انتظار

• لم يكن الملل قد بدا على وجه «العم سعيد» واضحا، بأي شكل من الاشكال.

سوّى من قعدته. رد أطراف جبته البيضاء حول ركبتيه، وراحت أصابعه تلاعب كتلة جبته الصوفية.

كانت عيناه تتحركان.. هنا، وهنا، وهناك..كانتا زرقاوين رماديتين، يحفهما بياض أغبر، لا صفاء فيه.. تطوفان، ولا تبصران.

قال:

– الله يكفينا شر هذا الزمان.. إلى متى ننتظر ؟!

وسكت !

كان القاعدون معه يغوصون في معان كثيرة للانتظار. راحت تصوراتهم في البعيد، تعدت معنى الانتظار، واستوت جميعها عند سقوط المطر، مطر «الوسمية» المحتجب في هذا الزمان.

«حميدة»، بعد ما ورثت أباها، ويتّمت على بنتيها، وأمها العجوز، بعد ما مات زوجها.. بعد ما أصبحت تعول البيت..

بعد ما نظفت أراضيها، الزراعية القليلة، من الحصى، و أقفلت الطريق – حتى يجيء الزرع ويحصد – وتفتحها:

تنتظر، مع المنتظرين. ولكن بعيدا عن مجلس الرجال:

(والله.. ما هي ضعيفة، ولا قليلة عقل أو حجة.. ولا من واحد يقدر يقرب من حقها. لكن للحرمة حدودا !)

** ** **

اخـرج «أبو جمعان» علبة الصفيح.. بحجم الكف.. مملوءة بالتمباك الاخضر.

ضغط بإبهام يمينه في وسطها من قدام. قالت العلبة الفضية: «طق».

في غطاء العلبة، من الداخل، دفتر صغير، خفيف مثل عش العنكب، أبيض كما البفت.

يمسكه مشبك، من وسطه، ولا يتركه يختلط بالتمباك في بطن العلبة:

«ورق الشام.. ورق ممتاز»

انتزع «أبو جمعان» ورقة واحدة، فركها بين أصابعه كما تفرك الدراهم، حطها على جنب.. مد الإبهام والوسطى، وغرز السبابة من يده اليمين، وسحب بقبضة الأصابع من التمباك الأخضر.. حطه في راحة اليسار، وهرس بأطراف أصابع اليمين.. لملمه.. أخرج منه العيدان الكبيرة.

حشا الورقة البيضاء بسبابته، فامتلأ بطنها مثل بطن الحبلى.

(تمباك أخضر.. ريحته تجيء بالعاقية)

لفها.. مرة.. مرتين. أقامت عودها.. على حافة الورقة الممدودة.. مرر طرف لسانه مرات، وظهر اللعاب واضحا في طرف الورقة.

مسح عليها بأصابعه. مال برأسه راضيا عنها، وجمع رأسها المفتوح مثل زهرة اللوز.. رفعها على مهله، حطها بين الشفتين.

أخذ علبة الكبريت «أبو شعلة الأصلي».. نزع عودا واحدا حك

به في جانب العلبة فقال: «تشخط».

ولعها.. خرجت ريحتها، تدخل الدماغ..

حديث الجماعة يدور، النظرات تدور، وفناجين الشاهي تدور.

كان «أبو جمعان» يختزن كل الكلام الذي دار، وقال:

- «فرج الله قريب.. يا سعيد».

ملأ جوفه من فنجان الشاهي: (فنجان شاهي ما يحب غيره «عقال فيصل» في أسفله نجوم مزخرفة، بين فجواتها سواد، أما فنجان «ساق سلوى «فللأولاد والنسوان.. كله بخط ذهب في أعلى الفنجال، «لكن هذا شيء.. وهذا شيء»).

مد «أحمد بن صالح «يده تجاه «أبو جمعان».. كانت ترتعش، ترتعش حتى وهو ساكن، وقال:

- «يا رجال.. هات ورقة من التمباك اللي قدامك.. وخلوها على الله، فلو حسب الزراع ما زرع !».

وفهم «أبو جمعان»: «سيجارة محشوة بالتمباك، جاهزة مجهزة للتدخين، ملفوفة وخالصة».

ضحك القاعدون، كلهم اشتركوا في قهقهة خفيفة.

سُمع صوتٌ قوي من الخارج.. في الصوت نحنحة:

- «يا أهل البيت.. يا بو صالح».

تململ «أبو صالح» في جبته الصوفية الحمراء الطويلة.. جاء رده مفزعا للهدوء المختلط بالقهقهة:

- «أهله الله.. تفضل».

وأضاف:

- «البيت بيتك».

قبل أن يدخل «مسفر القصير» ضرب على الباب الخشبي نصف المفتوح.. ضربات وراء بعضها.. خلع نعليه الجلديين، و دخل بجسمه وصوته:

- «السلام عليكم».

رد الجميع:

- «وعليكم السلام».

تواسعوا، عرض كل واحد من القاعدين أن يقعد بجانبه.

قعد إلى جانب «أبو جمعان».. متربعا معهم، على فراش الخوص العريض، بعد سكوت قصير قال:

- «كيف حالكم يا جماعة؟».

قال «أبو صالح»:

- «كلنا مثلك.. ما فيه غريب.. ننتظر الوسمية وفرج الله قريب».

سأل «مسفر القصير»:

- «طيب.. أيش تتوهمون بعد صلاة الاستسقاء؟».

شابك العم سعيد الأعمى بين أصابع يديه، وقال:

– «يعني.. تحسبون الأمر اللي جاء من عند الملك بصلاة الاستسقاء..

خلاص.. المطر يطيح ؟ ! ».

قذف «أبو جمعان» بعقب السيجارة من الشباك إلى الحوش.. مصمص شفتيه، وقال:

– «لو أراد الله بالمطر.. ما يأخذ رأي ملك، ولا غير ملك !».

قام العم سعيد الأعمى. توكأ على عكازه الطويل.. تساءل إن كان الوقت عصرا كما يحسب !

رد «مسفر القصير»:

– «سمعت قبل ما أجي راديو الرياض يؤذن».

قال العم سعيد الأعمى:

– «يعني قبل نص ساعة ؟!».

قال «مسفر».

– «منها.. وحواليها.. بيننا وبين آذان الرياض نص ساعة».

جاء ولد بإبريق فيه ماء.. صاح بخجل:

– «الماء.. يا عم سعيد».

أخذ بيد العم سعيد.. تركه في الساحة: يبول ويتوضأ.. بعدها يجيء.. يأخذ بيده إلى عند المسجد.

استوى الجميع، من توضأ، ومن كان متوضئا.

قال «أبو صالح»:

- «يا جماعة الخير أذّنت، وما جاء الفقيه !».

قال «مسفر»:

- «توكل على الله.. تأم بنا».

صلى بالمصلين.. سلم على ملائكة اليمين واليسار. قال وهو يمسح على لحيته القصيرة:

- «قولوا معي بحق طهر هذى الصلاة:

اللهم أغثنا.. غيثا كريما.. انك الكريم الرحيم».

قالوا كلهم: «آمين».

انقضت الصلاة وخرجوا من المسجد..

فرّد «أبو جمعان» عمامته في الهواء.. رفعها بقوة وهوى بها. قالت العمامة: «صك».

برمها برمتين، لفها على مهله فوق رأسه:

(نظيفة.. طاهرة.. تصلح سجادة.. تصلح لفرك العين.. لا تلمسها اليد، وفيها ريحة تمباك).

(٢) تمطر وسمية

• جرى خير.

توزع بالقيل والقال.. من بيت، إلى واد، إلى جبل

(بنت حميدة جاء لخطبتها شاب من قرية «الجيل»).

امتلأ سمع البنت بالخير الجميل، والثقيل.

أخرجت أحسن ثوب عندها.. «مخيّط بالتطريز».

في الصبح تمشط شعرها.. في المساء تمشط شعرها.

قالت «حميدة».

– «يا بنتي.. لازم تقعدين في البيت، مع جدتك، ومع أختك الصغيرة.. أنا، الله يعينني.. أشوف شغلي في الوادي والزراعة!».

قالت في إحدى قعداتها، قدام الحريم:

– «بنتي بعد.. صغيرة، وأحتاج لمعونتها.. لكن الخطاب كثروا».

قالت واحدة:

– «الناس يطمعون في حق اليتيم!».

قالت واحدة، لها دراية بالخطاب:

– «البنت جميلة.. تستاهل.. ماهرة».

و واحدة قالت:

- «نصيبها جاء.. إلى تحت قدميها».

لم تعد بنت حميدة تقدر على الخروج كثيرا.. لكن أمها لم تمنعها من «الاستقاء»:

(لا يشارك في الاستقاء إلا البنات المدركات.. قوة وتصرفا).

الدلو، لما يكون مملوءا بالماء، يحتاج إلى عضل يشده، وإلى عضل يرفعه، ويصب ما فيه من ماء في القربة المصنوعة من جلد الماعز النظيف ،المطلي بالقطران الأسود. قرب كبيرة.. وقرب صغيرة.. على قدر من يشيلها من النسوان والبنات. تسرح القربة فاضية.. تروح مليانة بالماء.

قالت «حميدة»وهي تمسح بطرف «شرشفها» على وجهها المدهون:

- «شباب هذا الزمان مدلع. ما فيه تعب وراء الدراهم..

واحد يسافر إلى مكة.. وواحد متعلم يشتغل في وظيفة..

يلبسون ثياب بفت بيضاء، وعمايم نظيفة..ويشربون الدخان من «أبو بس»»

وأضافت:

- «الله ما يعطي خير من الأرض، وخير من ورق الدراهم!».

ومر بقناعة حميدة بأن بنتها ستروح إلى بيت خير..تحت بطن شاب يشتغل بالوظيفة..بنتها الصغيرة ستكون لها حياة طيبة.. يجيء

وقت كل شيء يشتغل بالكهرباء، ليستريح البني آدم.

** ** **

مضت أيام طويلة وقاسية ومحاطة بالجفاف، تحولت فيها كل آمال الناس إلى رجاء حار يستعطف رحمة السماء. أخذت النساء يتصدقن بملابسهن القديمة. أخرج الرجال حب الذرة المكنوز في بيوت مؤنتهم، فجعلت منه زوجاتهم طبيخا لذيذا بالملح والبهار، وقدمنه في الغذاء والعشاء.

** ** **

قالوا، بعد صلاة الجمعة، إن سبب الجفاف..قلوب الناس ممتلئة بالحقد وبالضغينة ولا يظهرونها. رأوا أن يقرأوا «الراتب» خلاصا وتطهيرا للقلوب.. اعترض البعض بأن «الراتب»لا يقرأ إلا عندما يكون في القرية خائن أو مخرب لم يعترف بذنبه، حينها تجب قراءة الراتب (الفاتحة وبعض الدعاء بأن ينتقم الله منه أمام الجماعة في يوم أسود لم يكن يحسب له حسابا)

قال الفقيه:

– «يا جماعة الخير.. نقرأ الراتب والأعمال بالنيات!».

هبط سكون احتل ساحة المسجد. نظروا وهم جالسون إلى الأرض وتمتمت ألسنتهم بالفاتحة... ثم قالوا جميعا: «اللهم آمين». وتفرقوا إلى شؤونهم.

مر أسبوع بثقله ومرارته. جاءت الجمعة وفي المساء بعض غمام. وهبت رياح جافة وخشنة في أحيان كثيرة.

قالت الناس:

- «ربنا كريم».

وصلى بالجميع الفقيه، من نفس كتاب الخطب.. يتنقل بين أبوابها: (يعز الله الإسلام والمسلمين، ويحمي حوزة الدين، ويدمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين، ويجعل الله ولايته فيمن خافه واتقاه، وينصر الحاكم ومن والاه).

عقبها خرجوا من المسجد، والأولاد يزاحمون الكبار بحرج وبغير حرج. لا يفقدون أو يتغالطون في أحذيتهم المتناثرة مثل السحالي أمام باب المسجد.. اقتعدوا الساحة على هيئة دائرة.

لمحوا شابا غريبا عنهم.. وظهر شيخ في ثياب بذل في تنظيفها جهدا كبيرا. خرج من المسجد متأخرا قليلا.. قال بصوت خشن فيه جهورية حادة:

- «لا.. إله.. إلا الله».

ثم قال وهو يلمح الدائرة:

- «النظر سلام يا جماعة».

جاء الرد جماعيا متساويا:

- «وعليكم السلام».

قال:

- «يا جماعة الخير: العلم خير. إحنا إن شاء الله عندنا عروس يوم الخميس القادم. وما نستغني عن وجوهكم الطيبة تحضرون.. البنت

بنتكم والولد ولدنا، والبيت بيتكم.. والله يحييكم».

فكروا:

(الشيخ الذي عزمهم، من القرية المجاورة.. هو أب الشاب الموظف الذي تقدم لخطبة بنت حميدة).

كلمة سيرد بها الشيخ على الدعوة الطيبة، الكل ينتظر إعلانها.. استقرت كل العيون فوق رأس الشيخ.

على مهله مسح جبينه بكفه اليمين، ورفع عمامته من فوق جبينه إلى فوق عقاله.. وقال:

- «الله يحييك. البنت بنتكم والولد ولدنا.. والله يعينك باليسر».

قالوا:

- «أبشر بنا كلنا صغير وكبير».

** ** **

انتشرت غمامة مثل الكحل..تبعثر شيء من الرذاذ الخفيف، وتصايحت الناس بحب وحذر:

«أبشروا.. أبشروا».

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

- «أسمع صوت في الخارج».

ردت بطمأنينة: الناس يلملمون دجاجهم ودجائنهم.. السماء غائمة هنا وهناك «رشاش».

سألها إن كانت قد غطّت فتحة السقف.. فلن تعطى شيئا من نور النهار.. الغمام يمنع النور.. وقالت بشيء من التذمر إن كلامه كثير، ووصاياه لا تنتهي.. وهذا شأن العميان.

حاولت إقناعه.. فتحة السقف يجب أن تكون نصف مفتوحة من أجل دخان النار. لكنه رد عليها بغضب.. المطر يقتحم الفتحة إلى داخل البيت ... وأكد أن المطر عندما يطول امتناعه عن الهطول.. ينزل شديدا قويا، وربما نزل برد..

قطع ثلج مثل ثمرة اللوز.

جاء الصوت من الخارج:

- «يا أهل البيت.. يا سعيد ؟!».

على طول.. رد «سعيد»:

- «أهله الله.. تفضل».

وأضاف بود وابتهاج:

- «أدخل بحذيانك».

قال «أبو جمعان» وقلبه يهتز من الفرحة:

- «أبشر يا سعيد.. السماء أفرجت عن خيرها».

وقال:

- «تعرف يا سعيد.. الفقيه كان صادق يوم قال اقرؤوا الراتب».

استحسن «سعيد» قوله:

- «أي والله.. صادق».

خرجت زوجة العم سعيد من الداخل.. كانت تلبس جبة حمراء بفتحة.. قدام الصدر. تحيط بكل جسمها من فوق السرة ومن وراء الجانبين.. بنص كم.. بكتلتين طويلتين من الصوف المصبوغ بالأحمر.

قالت:

- «كيف حالك يا أبو جمعان».

وأضافت:

- «موت من ماء.. ولا موت من ظمأ».

قال «أبو جمعان» ووجهه كله يلمح فيها:

- «كيف حال عيالكم من البرد ؟».

قالت: «برد هذه السنة كان صعيب».

كل سنة يقولون إن بردها صعب. الأولاد يتناوبون في السعال.. لكنها تحرص على أن تجبرهم على شرب الجنزبيل مع الشاهي الذي يحبونه. تطحن الجنزبيل في «المهراس» وتمزجه بالشاهي، ويغلي على النار.

قال أبو جمعان لما استحسن الفكرة:

- «أيوه صادقة. ولو تركتيه على النار أكثر. بيطلع أحسن».

كان العم سعيد الأعمى يتوقف عند كل وقفة في الكلام يتوقفها أبو جمعان:

- «آها.. آها.. آه».

عند كلام زوجته ينصرف. يريدها أن تنتهي من الكلام، ليأمرها بفعل شئ.

قال:

- «اسمعي يا مرة »...أكمل بعد قليل:

.. «ودنا بدله قهوة من اللي يبغيها قلبي».

استدارت لتحضر عدتها.. وهي ماضية لمحت فتحة السقف. تأكدت من أنها أغلقتها بصحن النحاس. يستحيل على المطر أن يخترقه أو يتسرب منه.

قال العم سعيد في دعوته لأبي جمعان:

- «اقترب هنا من صهد القبس».

رد «أبو جمعان»أنه قريب منها. وأكد قوله بوضع كفيه الدافئتين جدا على يد العم سعيد الأعمى. قال:

- «الدفا نص المعيشة».

وقال:

- «وصاحب المثل يقول أدفينا وعافينا».

استطاب العم سعيد قوله. علق:

- «يقول القدامى إذا جاء الدفا جاءت العافية».

غمس «أبو جمعان»يده اليمنى في جيبه حتى غابت، بعد حركة

تفتيش قصيرة، أخرجها ممسكة بعلبة التمباك الفضية، وضعها على ركبته اليسرى. لم يفتحها بعد.

جاءت زوجة سعيد الأعمى بدلّة القهوة.

خلطت كل تراكيبها. ملأتها بالماء. وضعتها بهدوء على الكانون. النار تشتعل وتنفث دخانا أزرق يلهب العيون بحرارته. حيث استقرت الدلّة.. نضح منها قدر ضئيل على الجمر، فقالت: - «طشّ».

تفرعت رائحتها مع البخار الذي اختلط بدخان النار.

قبل أن يدخل «أبو جمعان»في مشروع توضيب السيجارة، رفع العلبة الفضية من على ركبته.. وفجأة دوى صوت قوي. قوي. اقتحم دويه الآذان. قرع في القلوب.

في ركن البيت يلعب الأولاد لعبة «القطرة»، ست نقاط مخططة على كف من خشب.. خطوط ثلاثة.. وثلاثة.

جاء صوت الرعد عظيما رهيبا ونذيرا بالخير والفرج.

قال كثير من الناس: «يا كريم».

(ماء كانت تنتظره الأرض، وينتظره الناس، وينتظره الرجاء الطويل، والدعاء المعلق بالأمل، وصلاة الاستسقاء،والمرسوم الملكي، والبهائم التي جاعت إلى الكلأ).

وضع «أبو جمعان»علبة التمباك مرة ثانية.. قال: «يا كريم».

قال العم سعيد الأعمى: «يا كريم».

قالت زوجته: «يا كريم».

قال الأولاد لبعضهم: «استغفر الله.. استغفر الله».. خافوا من الصواعق.

بقطعة قماش بالية محشوة بالخرق البالية.. قبضت زوجة العم سعيد الأعمى على عروة الدلة من خلفها.. وضعتها على طرف الجمر.. أحاطتها بركام الرماد الحامي.. كانت الدلّة تتفايض من تحت قبتها النحاسية.. تشبه قبة المسجد الكبير.

تناولت فنجانا من الفناجين الصيني البيضاء المنقوشة.. ملأته إلى نصفه بالقهوة. عامت على السطح قشور حب «الهيل» وبعض شعيرات الجنزبيل.

(الدلّة في اليد اليسرى، واليمنى تمسك بالفنجان)

ناولت «أبو جمعان». تناوله حتى استقر بين أصابع يده اليمنى. بتركيز، قدمه للعم سعيد الأعمى وقال:

- خذ يا سعيد.. عندك قهوة.

كان العم سعيد يدرك أن فنجانا واحدا قد صبت القهوة فيه. قال:

- «عندك.. يا بو جمعان».

بعد إصرار من «أبو جمعان» تناول العم سعيد الأعمى الفنجان، أخذه قليلا.. قليلا، لامس شفته السفلى.. رشف منه رشفة.. سمع صوت فنجان آخر تصب القهوة فيه.. وفنجان ثالث.

قال بهدوء:

- «القهوة ما تصنعها إلا يد تعرف».

قالت زوجته:

- «اشرب.. بالعافية».

قال «أبو جمعان»:

- «قهوة تستاهل الكيف».

قدم «أبو جمعان» فنجانه فارغا لزوجة العم سعيد الأعمى.. لم يضع أصابع يده اليمنى على رأس الفنجان.. حتى تنتهي الدلة.

تناولته. انهمكت في ملئه. كانت علبة «الكيف» قد قالت «طق» بضغطة خفيفة من إبهام «أبو جمعان».. استل ورقة واحدة من دفتر «ورق الشام»، وبدأ في توضيب سيجارة.

(٣) بنت حميدة تتزوج

• قطرت أشجار الطلح، و العرعر، واللوز، و الحماط، بالماء. تنازى القطر على جذوعها، وتحتها.

كانت جرداء.. وكانت طرية.

طلعت الشمس صافية.. دافئة.

أوقدت القبس وسط الساحة. عند آخر بيت، في الطرف، جاء الأولاد، تحلقوا حول ضارب الطبل الذي قعد يحمي أديم الطبول. ضرب برأس عصاه النقع .. قال الطبل: «طن»، وضرب: «طنطنطن.. طن.. طن».

واحدا.. واحدا.. نزل أفراد الجماعة. من هذى القرية وهذى القرية كلهم ملابسهم نظيفة.. وعمائمهم نظيفة.

قال «أبو جمعان»للأولاد:

– «يا عيال.. رصوا.. رصوا.. وإلا وسعوا عن الرجال».

قال ولد:

– «تحسبنا يعني ما نعرف نعرض ؟».

قال واحد:

– «كما الرجاجيل.. رصوا.. اثنين اثنين».

جاء الشيخ.. جاء الفقيه.. وقفا عند أول الدائرة.. يلبسان

«مشالح». على رأسيهما عقل سوداء.

اكتملت الدائرة.. حمى قرع الطبل، ونظم. رفع «العراضون»: القدم اليمين.. القدم اليسار. القدم اليمين.. القدم اليسار.

(كان منهم الذي يحمل بندقية أو سيفا أو خنجرا أو مشعابا)

توسط دائرة العرضة شاعران من الجانبين. امتدح الأول كرم وحسن الضيافة في الجانب الثاني. رفع الراقصون في العرضة أصواتهم.. ترديد طويل خلف الشاعر، من هذا الجانب، ومن هذا الجانب:

«يا لال.. لا لا له.. يا لال.. لا لا له».

دورتان ائتتان ورائهما اثنتان.. رفعت الأقدام اليمنى.. فاليسرى. فاليمنى.. في مكان واحد. ووقفوا ينصتون لقول الشاعر:

«يا لال.. لا لا له.. يا لال لا لا له..... وانحن أن شا الله بنهزم روسية».

قبل أن يدوروا على الكلام.. نزل شاعر الجانب الثاني، توسط الدائرة.. رد على الرد:

«ما ضرينا بلقص القذ حتى نحارب روسية».

فهم العراضون:

(ما تعودنا على قرص البرغوث !).

فهموه. بألغازه البعيدة.

لم يرمِ واحد منهم برصاصة بندقية واحدة. قرار الحكومة..

والأحزمة مشدودة على الوسط.. منضدة بالرصاص.

جاء أب العريس.. في يده دراهم، قسمها بالتساوي، بين الشاعرين.. انتهى كل شيء قبل آذان المغرب.

كانت النساء على سطوح البيوت (يخيلن العراضة).

نزلن من الدرج والسلالم القصيرة، حاملات أطفالهن. اجتمعن على العشاء في بيت العريس.

(لا يجوز، أبدا، للرجال والشباب دخول مجلس النساء..عادة كانت قديمة. قال المتعلمون إنها حرام وعيب، ومعها عادات كثيرة يحرمها الدين!).

بعد قليل تقدم أربعة رجال. كل رجل يحمل صحنا كبيرا يتناثر باللحم والأرز.

دخلوا من باب مجلس الحريم الكبير. هجدت الأحاديث، وبكاء الصغار، وكلام العجائز والبنات.

كان فراغ المجلس يفيض برائحة البخور والأنفاس. امتلأ وفاض.. كما لو أنه فرن فيه نار ملتهبة.

لما تقدم الرجال لم يلتفت واحد منهم إلى واحدة.

امتدت أيدي عدد من البنات.. كن بالقرب من مقعد العروس.. (المقعد تجلس عليه العروس، أما العريس فلا مقعد ولا مكان له بين جمع النساء).

قلن لها: - «هيا قومي.. العشاء نخاف يبرد».

وجب على العروس أن تبدأ.. قالت حميدة، بصوت جهوري، لكل الحاضرات:

- «تفضلوا.. الله يحييكم».

قال الناس إن أهل العريس تجملوا، وكانوا كفؤا للنسب:

(أول ليلة ذبح ثور سمين، طبخوه جيدا.. يأكل منه اللي ما عنده سنون. وصبح اليوم الثاني ذبح أربعة خرفان.. وطاسات سمن بقر.. وكيسين من الطحين.. واقراص. ذبح ثاني ليلة اثنا عشر خروفا.. كلها سمينة، غطت كل الحاضرين.. رجال ونسوان. طول الوقت: قهوة وشاهي.. قهوة وشاهي).

بعد ليلتين من الصخب والضجيج، ورائحة الدسم تملأ الركن الكبير من حوش البيت، تغطي الحوش والدار والدور الملاصقة.. جلس أب العريس يعد الدراهم.. تقدم بها المهنئون صبيحة اليوم الثاني.. وجدها ألف ومائتي ريال.. لفها في صرة من القماش المزهر.. ناولها لزوجته وأوصاها بحفظها في صندوقها إلى جانب صكوك وثائق أراضيه الزراعية الصغيرة.

(٤) مصلح الدوافير

• خلت البيوت من أهلها. بقي العجائز والمريض والطفل، ويقى العم سعيد الأعمى.

هاجت الوديان بالناس والمواشي والحمير. هبوا جميعا وانتشروا يفلحون الأرض، وينقونها من العشب والحجارة، والأعواد الصغيرة، وزلل المطر.

الأرض لدنة، رخوة. رائحة الطين، من بعد جفاف، تملأ الجو.

نزل الجميع بملابس تصلح للعمل

كلهم نزلوا.

(الجزار الذي يشتري المواشي، ويذبحها، ويبيع لحمها. والصانع الذي يصنع من الحديد المحراث والفأس ومفصلات الأبواب.. وكل قطعة حديد.. لا ينزلون الوادي بعد المطر).

كانت الأودية تقرع أصواتا متماثلة:

«هيه..هيه.. هوه.. آهاه».

خلف ثيرانهم.. الناس يعملون. يحين وقت القيلولة والغداء. يربطون ثيرانهم وحميرهم في جذوع الشجر. ويتغدون تحت فيئها، ويشربون القهوة الممزوجة بحب الهيل والزنجبيل، ويشربون الشاهي.

يجلس «أبو جمعان»، متكئا على مرفقه، تحت الطلحة.. وقتا للف التمباك، والاستمتاع بكيفه.

** ** **

مرت أيام سبعة وثمانية. بذروا الشعير والقمح والعدس في أديم الأرض، غطوا عليها بالتراب الندى بالمحراث. قعدوا زمانا يعدون فيه الأسابيع، حسب التنجيم وإحصائيات النجم البادر ونجم الثريا، وكم بقي على سقوط مطر ما قبل الحصاد.. مع دعوات لا تحصى في أن يرعى الله ويبارك.

قال العم سعيد الأعمى لابنه الكبير حمدان:

- «بذرت كل البلاد ؟».

أجابه ابنه، وهو يسل قدميه من الطين:

- «نعم».

** ** **

قال العم سعيد الأعمى في جلسة العصر:

- «يا جماعة الخير.. جاء زمان، شفنا فيه الدهر وجفافه، بعد ما صلينا الجمعة.. خرج علينا واحد من المطوعين اللي يرشدون الناس للدين الصحيح، ويعلمونهم الأصول.. قال: قعد يخبرنا.. فقال لواحد من الجماعة، هل تعرف ربك ؟!

- قال: نعم ! قال: كيف عرفت ربك ؟!.. قال بصدق نية: أعرف ربي بالفقر. وسكتنا.

قال المرشد: وما هو الدليل ؟!

وبعد ما مسك الرجل بطرف جبته قال: الدليل هذى الجبة المقطعة قدامك».

قال العم سعيد مستكملا، بعد وقت قصير:

- «والله ما أحكي لكم غير الصواب.. المرشد خجل وسكت، وما يدري ايش يقول له، والناس سكتوا. بعدها قال المرشد:

- قولوا جميعا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله..

تشهدنا كلنا.. ودعيناه على الغداء.. والغداء كان عيش وسمن.. غداء ما نحلم به في النوم.

أضاف:

- «دائما ياجي الدهر، ويروح، وربنا لطيف بعباده».

قال واحد:

- «يقولون في السيرة..أن فيه واحد سأل الرسول عليه السلام.. قال يا رسول الله.. ايش أحسن الأكل؟. قال الرسول عليه السلام: الجوع أبصر».

وأضاف:

- «الجوع ما يفرق بين طيب الأكل وبطاله».

قالوا جميعهم «صدق رسول الله».

امتد حبل الحديث.. قال واحد:

- «يقولون.. الرسول عليه السلام حزم بطنه من الجوع وما مات».

رد واحد:

- ويقولون.. الصحابة ما كانوا يشبعون.. سبحان الله !

(توافقوا جميعا على أن الجوع كافر، الدهر يجيء ويغيب وفيه العذاب بالفقر، ومن بعد كل عسر يجيء اليسر).

في حضرة الجلسة.. تجاذبوا الكلام حول أيام الشدة والفقر، وقدرة الرسول على مواجهة الجوع، والتصرف بعين الحكمة وقتما يحين الحين. في هذه الأثناء أتى أحد الأولاد بصحن دائري فوقه فناجين الشاهي.. يتوسطها الإبريق الأحمر، مرسوم على جوانبه أوراق ورد متفرعة الورق.

صاح رجل من خارج الساحة:

- «مصلح دوافير الجاز».

حدثت مطاردة خفيفة..تفرق الأولاد حيث يلعبون في الساحة.. جاؤوا مفزوعين:

- «واحد مقاول.. واحد مقاول».

«مقاول»!

يلبس البنطلون والقميص وغريب.

خافه الأولاد.. ملابسه ما هي بمألوفة.

كان يحمل صندوقا مثل حقيبة متوسطة.. يعلقها إلى جنبه الأيسر.

جلس لإصلاح «الدافور». التمّ حوله الأولاد الهاربون.. كانوا يستمتعون بطريقته في هندسة الأدراج والأرفف. مسكونة كلها بالمفكات والإبر والجلد، وكل ما يحتاجه الدافور من غيار وإصلاح.

مد «أبو صالح» نظره قليلا إلى أن احتوى المقاول. زعق به:

- «تعال.. تفضل يا حجي»!

-

قال «حجي» ليخفف عليه من الغربة. «مقاول» شديدة.

جاء مصلح الدوافير، قال:

- «سلام عليكم ورحمة الله».

ردوا جميعا:

- «وعليكم السلام ورحمة الله».

جلس، كانت جلسته صعبة ومتعبة، على بساط الأرض وأجهد حتى استوى متربعا.

ناوله «أبو صالح» فنجان الشاهي يطفح.. قال

- «تفضل يا حجي».

قال المقاول:

- «شكرا.. شكرا».

في هدوء رد أبو صالح:

- «العفو يا حجي.. عفوا.. اسم الكريم؟».

أجاب المقاول:

- «اسمي شعبان.. عبد الكريم».

قالوا جميعهم:

- «أهلا وسهلا».

وسأل أبو صالح:

- «من اللد.. واللا من الرملة؟!»

(كان أبو صالح يعني سؤاله. ما هو تثقف. لكنه يعرف هذه الملامح. عاش معهم في بلادهم أربع سنوات. يحكي عن حرب ٤٨. سافر هو وولده صالح.. ومعهما ناس حفاة.. على أقدامهم. ومرة سافروا راكبين. كانوا يبغون يقدسون).

أجاب:

- «لا والله.. من غزة».

رد أبو صالح بابتهاج:

- «أهلين وسهلين بأهل غزة.. مرحبتين».

تهلل وجه شعبان. سأله كيف عرف أسماء هذه الأماكن.

أجابه «أبو صالح» انه يعرفها. و حكى له بعض جزء من القصة.

استدعى أبو صالح أحد الأولاد ليحضر الدافور الخربان. أصلحه من الجوانب التي يشتكي منها، وعالج مكان التسريب بقليل من

اللحام القصدير مع ماء النار. الجماعة جالسون يتابعون باهتمام.

الأولاد تحلقوا معجبين بالنار الخضراء.

طلب المقاول ريالا. دفع أبو صالح المبلغ، وأعطاه خصلتين من العنب الأبيض. يعرفه الجميع من كرمته الكبيرة في الوادي.

كان الأولاد قد دخلوا في صراع حول الحصول على فتافيت اللحام البيضاء الفضية. نهرهم أحد الجالسين:

- «عيب يا سفان!».

قال أحمد:

- «أنا الذي جبت الدافور.. ومن حقي أخذها».

وقال ولد الجيران:

- «يا سلام.. وأنا جبت الشاهي.. وجبت العنب للمقاول.. من عندكم».

نهر الرجل مرة أخرى:

- «فكونا من المشكلة.. قلت لكم عيب!».

نهرهم بعين حمراء، وعرفوا أنه بعدها يضربهم بالكف ... انتهى الصراع على توعدات كثيرة بينهم بالضرب والتعدي.

قال مسفر القصير، ورائحة بقايا التصليح لا تزال راكدة:

- «طيب يا بو صالح.. أهل فلسطين هاذولا.. ايش قصتهم؟».

قبض «أبو صالح» على لحيته بكفه اليمنى، وفي بنصره كان يتحلق

خاتمه الفضي المتناسب «الختم». تطلع نحو مسفر القصير بعينين سارحتين.. كانت إحدى عينيه من الباغة. وضعها «الحكيم» بعد عملية فيها، من أعوام راحت، بعد حادثة وقعت في الوادي.. بيده وهو ينظف كرمته.

قال:

- «الله يهديك يا مسفر.. تبغي تذكرني أيام كانت الحصى خبز! الله.. الله.. الدنيا تتغير. سبحان مغير الأحوال، يوم سافرنا نقدس.. على عهد الدراهم يوم كانت فضة.. سافرنا وما معنا إلا شوية طحين في زعبة، وعلى اقدامنا مرينا على تبوك، وتيماء، وبلاد أهلها بدو، وبلاد فيها أهلها غجر، وبلاد فيها الطيب والبطال، وما وصلنا حتى مرضنا وتعافينا، ومرضنا وتعافينا، وجينا..

الله، يا جماعة على هاذيك الدنيا.. سبحان الله.. أرض جنة.. الفواكه من كل الأشكال.. والدنيا.. والسيارات على كل لون».

قال مسفر:

- «يقولون الجنة هناك!».

واصل أبو صالح:

- «دخلنا عن طريق العقبة مع واحد بدوي اسمه.. اسمه.. الله يعطيني على اسمه.. أيوه.. اسمه غظيان.. على جمل قرحان أسود، وكان ولدى صالح بيموت من المرض.. وكان يقذف دم من الحمى.. والبدوي غظيان، الله يذكره بالخير، عمل فينا خير.. أركب صالح على الجمل.. الله يا الدنيا.. كانت بخير».

لحس «أبو جمعان» شفته السفلى بطرف لسانه، وقال:

- «الدنيا لازم يكون فيها.. أولاد الحلال».

قال «أبو صالح»:

- «نعم».

واصل:

- «دخلنا على عرب خلقتهم من أحسن ما خلق الله.. حمر.. والواحد منهم طوله قامة ونص منا.. شواربهم طويلة، وكل واحد عنده فرس تسوى الدنيا.. ولهم نسوان.. الواحدة كما الثريا ... سبحان الله.. أقول لكم..!».

قال مسفر، وهو يتهيأ بكل مسامه:

- «طيب يا بو صالح..».

قال أبو صالح:

- «بتنا عندهم هذيك الليلة ،وفي خيمة واحد منهم.. جابوا لصالح جبن مملح، ودهنوا راسه وأقدامه بالسمن. قالوا لنا، بعد ما رطنوا مع بعضهم، صالح ولدك تعبان ولازم يستريح عندنا. قلت لهم.. صالح شاب.. ثلاثة وعشرين سنة.. وان شاء الله يتغلب على المرض ويخف منه.. و احنا لازم نروح للقدس بكرة عند الشروق.

وبعد ما ودعنا البدوي غظيان، وراح لأهله.. ومن صبح اليوم الثاني.. جهزوا لنا فرس.. كان معهم واحد منهم بفرسه، علشان يورينا الطريق. خرجت نسوانهم اللى كما النجوم.. قدام الرجال مختلطين.. وودعونا.. ركب صالح خلفي، على الفرس، وتمسك

بايديه في جنوبي. وتقدمنا الشاب بفرسه كما الريح.. أما أنا لأول مرة أركب خيل.. اضحكوا يا جماعة الخير».

قالوا، والانتظار على وجوههم:

- «خير».

واصل، وكفه قد بدأت ترتفع وترتخي مع الكلام:

- مسكت الرباط في يميني وهزيت الخيل برجلي.. وأبى يمشى. حاولت..حاولت.. ما فيه فايدة.

بعد قليل عود علينا الشاب بفرسه. وقال ليش ما تمشى خلفي ؟ قلت له الخيل ما رضى يمشي. ضحك منى وقال أظنك يا حجي ما قد ركبت خيل ؟!

استحيت، وقلت له يمكن خيولكم لها طريقة ثانية !!

تلمح فيه شوية، وقال وهو يضحك:

- «يا حجي، أمسك الرباط في أيدك الشمال، وهز الخيل برجولك.

وفعلا. مامسكت الرباط في شمالي حتى انطلق الخيل كما الريح.. ورحت أشد برجولي على بطن الخيل، وقلت لصالح: توثق وامسك بجوانبي.

ما جاء بعد الظهر حتى قربنا من مدينة القدس، وتركنا الشاب هو وخيوله.. بعد ما وصاني كثيرا على صالح.. الله أكبر.. ناس الله يذكرهم بالخير».

قال العم سعيد الأعمى وبيداه تلعبان بكتلة الجبة:

- «طيب يا بو صالح.. وبعدين ؟».

- «المهم يا جماعة الخير.. دخلنا.. أغراب.. أغراب في لبسنا، وخلقتنا، وزعبتنا معنا..ودخلنا المسجد.. يسمونه المسجد الأقصى.. دخلنا ما نعرف لا زيد ولا عبيد.. لقينا ناس من اليمن وكأنا لقيناكم.. سلمنا عليهم.. قالوا لنا احنا جايين نقدس وندور على شغل. قلنا لهم واحنا كذلك. وربنا جمعنا على خير.. عشونا معهم هذيك الليلة على طحيننا وطحينهم.. سوينا عصيدة ولبن.. وكل شوية نقدم نفوسنا عند المحراب ونتلمح.. يا ليتنا كنا نصلي.. لكن كنا نتفرج على المسجد اللي فيه ناس أشكال وألوان، وفيهم نصارى ويهود.. خلقتهم باينة.. ويرطنون بدعاء ما فهمناه.

أخرج «أبو جمعان»علبة التمباك.. راح يوضب سيجارة..

قال:

- «والمهم.. يا بو صالح».

قال:

- «والمهم..

فرقتنا الأيام مع اليمنيين، ورحنا كما الهبل نتمشى في مدينة القدس وندور على شغل. قالوا لنا ناس عرب.. الشغل موجود.. واشتغلنا بقوت يومنا.. وكل شهر يعطون ما يساوي ريالين فضة.. ريال ينطح ريال.. شوية.. شوية.. وقامت الدنيا».

قال مسفر:

- «كيف يعني ؟!».

قال «أبو صالح»:

- «يجيك العلم يا سيدي.. قامت الحرب على عهد الإنجليز. كانوا يعطون اليهود السلاح والرشاشات.. والعرب ما كانوا يدرون.. كانوا يحاربون ببعض البنادق الفاسدة والعصى.. وطاح ناس كثيرين.. ما توا في الحرب من حصد رصاص اليهود.. منهم واحد يسوى قبيلة من قرية بني كبير اسمه عبد الله.. الله يا ذاك الرجل اللي يسوى كل اليهود.. وناس طوال اشناب من زهران وقحطان.. وياما ناس.. تطوعوا في الحرب مع العرب.. وماتوا. والله ماتوا من أول ما بدأ الحرب.. يا خسارة الرجال.. لكن المشكلة قوة اليهود برشاشاتهم وسلاحهم.. ونحن مثل ما قلت لكم.. بعضنا معه بندقية وبعضنا معه عصى.. والسلاح ما يقابله إلا السلاح».

كان فم العم سعيد الأعمى مفتوحا إلى فوق. قال:

- «وصالح.. وين راح ؟».

قال:

- «ولدي صالح.. كان بعيد عني.. وكنت خايف عليه.. لكن الرجال اللي طاحوا نسّوني ولدي.. ونسّوني الدنيا.. وشوية الرحمن..ما حسيت إلا وانا طايح على جنبي الشمال ،والدم يخر.. نسيت نفسي.. وبعد أربعة أيام صحيت في مستشفى عمان، وعندي ناس كثير.. أعرف بعضهم وبعضهم ما أعرفه.. معهم ولدي صالح.. نشدتهم: ايش جرى؟!

قالوا لي.. خير.. حرب اليهود ما سلمت منها.. هذا رصاص يا

بو صالح..

رفعت أيدي وقلت: الله يكفينا فيهم وفيمن يعاونهم.

وقعدت في المستشفى أربعة شهور.. انجرحت في المفصل عند المثانة.. تصوّبت بصواب رشاش.. جاء على المسدس اللي كنت أحمله»..

وقف «أبو صالح»، خلع جبته الحمراء، وكشف عما فوق سرواله الطويل الأبيض، فبان مكان الجرح:

رقعة لحم مستديرة فيها مكان العملية.

قال مسفر:

- «والله صواب ما هو سهل.. لكن ربك سلم».

قال واحد من الجالسين:

- «والله يا بو صالح لو كنت ذبحت عشرين راس من الغنم فداء».

علق أحدهم وهو يضحك:

- «أبو صالح أهل الكرم.. يمكن يدسم شواربنا بريحة ذبيحة».

قال «أبو صالح»وعلى وجهه ابتسامة:

- «يا ما ذبحنا من فداء.. لكنكم جماعة تستاهلون كل خير».

قال مسفر، وهو يفرك يديه السمينتين، متلهفا:

- «طيب يا بو صالح.. وا يش هي قصة أهل فلسطين مع

اليهود؟».

رد أبو صالح بأنّة طويلة. كان قد جلس ووضع جبته على كتفيه:- «ايه.. ايه.. القصة طويلة.. هاذول اليهود بمساعدة من الإنجليز يقولون إن أرض فلسطين لهم. وفلسطين هذي الأرض الجنة معروف إنها للعرب جيل عن جيل.. لكن مثل ما قلت لكم.. قدروا اليهود بسلاحهم، وسلاح الإنجليز، والأمريكان كانوا وراهم..قدروا يحتلون الأرض بالسلاح.. بالقوة، وبالفلوس..كانوا يشترون من الأمير عبد الله ملك الأردن هاذيك الأيام.. يشترون الأراضي ويبنون بيوت جديدة على طراز حديث.. وشوية.. شوية.. سووا كباين ومستعمرات.. وطردوا أهلها عرب فلسطين.

لكن هذيك الأيام كانت الدنيا نايمة، والعرب كانوا نايمين.. ما كانوا يدرون كيف يتصرفون.. واهي مشكلة كبيرة.. وطويلة عريضة.. من هاذيك الأيام.. تشردوا أهل فلسطين..ومات أعداد.. وهاجر ناس.. وسافر منهم ناس يجون يدورون شغل عندنا.. مصلحين دوافير، ومدرسين، ومصلحين سيارات في مكة وغيرها».

قال مسفر:

- «حكم سعود جاء بخير..لكن قلّت البركة.. وقلّ الخير من السماء.. وشحت الأرض».

قال واحد:

- «الدنيا كان فيها البركة. واليوم تغيرت الأحوال.. انتزعت البركة».

قال «أبو صالح»:

- «المسألة مسألة قلوب الناس وتعاونهم مع بعضهم..يد الله مع الجماعة.. والبركة معهم وبين ما حلوا.. حلت».

** ** **

هبت رياح طرية. أخذ المغرب يقترب. أشعلت بعض البيوت في الجبل مصابيحها. قال أبو صالح إن المغرب يقترب، وأكد بأن أخرج ساعة الجيب الفضية المعلقة بسلسلة دقيقة على جيب الصدر. قرأ عقاربها المضيئة وقال إنها إحدى عشرة ونصف.. ويجب على من يريد الوضوء أن يأخذ إبريقا من الأباريق (المعدنية المتناثرة عند الحنفية الزنك) ويفتح «بزبوزها».. يملأ الإبريق ويتوضأ في الساحة الواسعة.

قال «أبو صالح»بعد الصلاة.. وهو ينهى التسبيح، ويتهيأ لركعتي السنة:

- «وجه الله يا جماعة: اللي يقدر يبات عندي.. يتعشى.. وبعدها يسري عند عياله.. الله يحييه».

قال «أحمد بن صالح»، وهو يعدل من عمامته مرتعشا:

- «خلاص.. يا بو صالح.. أنا عيالي راحوا من بدري من الوادي، وولدي عبد الله عندهم، وبا بات معكم الليلة».

قال «أبو صالح»متهللا:

- «الله يحييك يا بو عبد الله. معنا الليلة قطعة لحمة. وبنسوي عليها مرقة وعصيدة.. علشان سهلة.. الله يحييك».

كان أحد أولاد أبو صالح قد ملأ مصباح الجاز، أحسن شعلته،

ثم وضعه في مجلس الرجال، إلى جانب راديو البطارية الكبير، ووضع فراشا مريحا للجلسة، وحوله عددا من المخدات المحشوة بالعلف. وعلى الأولاد أن يلزموا الهدوء، ويحترموا الكبير، ويسمعوا الحديث.. ولا يمدوا أيديهم إلى قطعتي اللحم الفائحتين بالريحة المحبوبة قبل الأب أو الضيف. سينالون نصيبهم، ثم يأخذون دفاترهم وأقلامهم وينهمكون في الدراسة تحت ضوء المصباح.

أمهم وجدتهم وأخواتهم في الداخل. يتعشون العصيدة والمرقة، واللحم للرجلين، على فانوس بخيل الاضاءة.. لكنه يكفي حتى يحين وقت النوم، يصحون مبكرين.. يعملون القهوة بالجنزبيل.. ثم يسرحون قبل طلوع الشمس إلى الوادي.

(٥) الخال يزور (أبو صالح)

• قالت زوجة (أبو صالح) وهي تحدث جارتها عند البئر:

– «البارحة سمعنا في الراديو أغاني هيلة.. حقة سميرة توفيق».

قالت، وهي تحبها أكثر مما يحبها كل الناس.

وقالت:

– «أغانيها.. تصلح للحن جديد»، وغنت على طريقتها:

– (يا له للا.. لا.. للاله.. لا له للا.. يا.. للا له.. أحباب الضيف.. ضيف الله.. أحباب الضيف.. ضيف الله.. يا له للا.. يا.. للاله.. يا له للا.. يا.. للا له).

امتد صوتها ببطن الوادي، كان صداه يلعلع في الجبال القريبة المتقابلة.

قالت جارتها:

– «وطي صوتك يا ختي.. لا يقولون عندنا عروس».

وردت:

– «يا له للا..يا للا.. يا له للا يا للا له.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب ايده».

بحماس وتأن:

– «أيوه.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب أيده».

وضحكن بمرح.. ثم أخذن في إنزال الدلو إلى البئر.

** ** **

في الطريق الممتد المعوج، الصاعد، الهابط.. في منحدر الجبل، تحت البيت.. قابل أحمد أمه، وهي تحمل القربة السوداء المنداة على جنبها الأيمن، والماء يتقاطر قليلا.. قليلا، يبلل ثوبها ويروح يبلل سروالها العريض، والطويل.

قال أحمد:

- «يا امه.. أبي يقول هيا.. فيه ضيف في البيت».

أسندت الأم قربتها إلى جانب حجيرة مبنية على الطريق، مرتفعة في البناء إلى حدود الحزام، تهف بصوت مسموع، نظرت إليه في عتاب.. قالت:

- «أحمد.. ما لبست عمامتك عشان البرد.. الله يهديك يا ولدي!».

قال أحمد انه جاء مستعجلا حتى أنه قد نسي أن يلبس حذاءه. مسحت على رأسه برفق شديد.. أحس بموجة من البرودة والحنان، وسمع صوت الخرز الملتف بمعصمها.. أحس كأنها تدخل دماغه.. ورفع رأسه.. قالت عيناه في استحياء مكتوم:

(هل تحبينني يمّه).

احتملت قربتها، واندفعت مشيرة إلى ابنها لكي يمشي أمامها. فهو رجل، ولا يصح له أن يمشي خلف «الحرمة».

عندما وصلت إلى البيت، وجدت ابنتها قد أعدت قهوة مقبولة،

وقدمتها باليد اليسرى، والفناجين باليمنى، لأبيها وخالها.

قال خالها:

- «ما شاء الله..الله يبارك فيك يا غلتي..حرة.. والله حرة.. صرتي عزبة.. ما شاء الله».

نظرت خضراء عند قدميها، وكادت الدلة تنزلق من يدها، لكنها أحكمت قبضتها، وناولت خالها فنجانه وهي واقفة.

قال خالها:

- «أسلمي.. أسلمي.. ناولي أبوك الأول».

ومدت يدها بالفناجين لأبيها.. قال:

- «سلمت الحرة.. يعطيك العافية يا بنتي».

جلست، أخذا يتحدثان في مستقبل حياتها، ومشروع الزواج البعيد، خضراء انهمكت بكل جوارحها، في حياء شديد.. كانت تسمر عينيها في طرف الدلة أمامها. لم تحرك ساكنا، أو تتفوه بتنهيدة واحدة.

دخلت الأم، كانت تلبس شرشفا نظيفا، رائحته تقول انه مكث طويلا في الملابس المعطرة بالبخور، قالت لأخيها:

- «أنا فداء أخي.. سلام.. كيف حالك».

ودلفت تقبله قبلات سريعة، وهو يرد:

- «كيف حالك.. الله يسلمك.. الله يعافيك.. كيف حالك.. الله يسلمك.. كيف حال العيال».

وتجيبه:

- «الله يعافيك ويسلمك.. كيف حالك.. الله يسلم راسك.. كيف حال عافيتك».

وسألت بالسلام عن أمها، وعيناها تنضحان ببعض الدمع:

- «كيف حال أمي.. لي مدة ما شفتها.. إن شاء الله تكون بعافية».

رد بابتسامة، مليئة باللطف، بأنها بخير. وسألها عن صحتها.. وقال:

- «ليش ما تجين تسلمين عليها. يعني مسافة ساعتين. والا نسيتي أهلك عشان بعيدين ؟»

اعتذرت اعتذارا مقبولا.. أشغال الوسمية والبيت، والعيال، يجب مراعاتهم، وملاحظة التشديد على الدراسة. وعددت الكثير من الاعتذارات التي لا يمكن لفاهم مثله أن يلومها عليها.

قال أبو صالح:

- «ان شاء الله نجي كلنا.. بعد ما نخلص الوسمية.. ومثلك عارف البير وغطاها».

ابتسم في محبة، ضاربا بيده اليمنى على صدره، مظهرا ترحيبه الشديد، واستعداده الكريم.. وسأل خضراء عن اخوتها.. قالت:

- «يلعبون في الساحة.. تحت اللوز».

سأل أبو صالح:

- (هل أعلفتم المشدود ؟)

قالت زوجته:

- «آفا.. أعلفنا حمارة آخي، وحطينا شدها».

وأشار إليها، بغمزة، فهمتها.. ستعد غداء طيبا.

استأذنت بخفة إلى الداخل.. لتعجن وتعمل أقراصا خفيفة بالسمن إلى جانب التمر، حتى يؤدون صلاة الجمعة مع الجماعة، وينزلون.. فيجدوها جاهزة.

فكرت، وهي تعد العجينة، إن كان لديها شيء من البيض. عندما نزلت إلى عشة الدجاج لم تجد إلا بيضتين. رأت أن تذبح إحدى دجاجاتها السمينة.

نادت أولادها من ساحة البيت السفلي.. تحت شجرة اللوز. طلبت منهم أن يصطادوا الدجاجة الصفراء، انطلقوا.

لم يكن «أبو صالح» يتوقع هذا الغداء الدسم..لكنه سلم في نفسه:

(حكيمة، وتحسن التصرف).

طلب من خضراء النزول للوادى القريب.. تقتلع أعوادا من البصل الأخضر، وفعلت.

وبعد الغداء، والتكثير بالخير، استدعى الخال أولاد أخته، دعا في البدء خضراء وأحمد.. قعد الأولاد إلى جنبه وهم يتدافعون ويتضاحكون بخجل.

أخرج الخال حافظة جلد تلمع. فتحها..كانت بجيبين، وفي أحدهما صور له ولأولاده.. تحاشد الأولاد، أرسلوا تحديقاتهم باهتمام نحو المحفظة.

أعطى كل واحد منهم.. بالتساوي.. قطعة نقود فضية كل قطعة أربعة قروش.

قالت القروش وهي تنخرط:«رنق..رنق».كانت الفرحة المباغتة تملأ قفزاتهم، وهم ينطون، واحدا.. واحدا..يقبلون خالهم.

قال الخال:

- «شموا أبوكم.. سلموا عليه».

.. قبلوا أباهم، ودخلوا عند أمهم. قبلتهم وفي يقينها هاجس: سيجيء لها نصيب.

(٦) المــاطـــور

• منذ أول الصباح، منذ صاح الديك عند أول خيط أبيض من الفجر: كان الناس قد توزعوا في الوديان، يسقون زرعهم.

وكان فرحان قد جاء «بماطور» يعمل بالبنزين، ذهب الجميع وقتها يتفرجون عليه. كان حديث الناس: (ماطور يطلع الماء من البئر. يحتاج إلى سلم طويل من الحبال الجيدة، ويحتاج إلى صينية خشبية تحمله، تربط بالحبال الوثيقة وتكون قريبة من الماء..تشترك في إنزالها أيدي الرجال).

قالوا: (اشتراه بالتقسيط من مكة). وحمله على جمل سعيد بن أحمد، وإلى البئر أنزلته أيدي الرجال، وثبتوا أحزمته.. ربطوا أحدهم بحبل في وسطه، ونزل إلى قاع البئر. يقولون إن طولها اثنتي عشر قامة من قامات الرجال الطويلة.

أخذ، بين أسنانه، حبل التشغيل. ونزل واحدة.. واحدة. قال للذين على رأس البئر: (خلاص.. وصلت). وحل الحبل من وسطه، وبدأ يلف الحبل على المروحة، وينزعه بقوة ليشتغل ويدفع الماء إلى أعلى.

غير أن الماطور عاند معه. وفي كل مرة يشتغل قليلا وينطفئ فجأة، ليشتغل.. وينطفئ، يشتغل.. وينطفئ.

امتلأ بلعوم البئر بالدخان الخانق، حتى غاب الرجل عن البصر. بعدها، اشتغل الماطور ودفع الماء إلى أعلى، قالوا: «يا سلام على الماطور».

هزوا الحبل هزات، فلم يجب الرجل من أسفل البئر. كان الدخان مثل الضباب يندفع من أسفل. تحلقوا حول رأس البئر، أطلوا برؤوسهم. لم يستطيعوا إبصار شيء في القاع. الدخان شديد برائحته خانقة.

نادوا باسم الرجل، ولا من يجيب.. إلا صوت الماطور مثل الساقية العالية الهدير.

قرروا أن ينزل أحدهم ليرى ما يجرى، ربطوه بالحبل في وسطه، ودلوه قليلا.. قليلا. كان يتنفس بصعوبة بالغة.

وصاح، من أسفل، صيحة مخيفة:

– «الرجل طاح.. وينكم.. الرجل مات.. الحقوا.. وينكم ؟!»

ملأ الفزع المفاجئ حركتهم. تدافعوا. قالوا: «اطلع». وشدوه بقوة.

كان يتنفس بصعوبة. ضرب على جبهته عدة ضربات بكف يده اليمنى. قعد على أطراف أصابع قدميه.

كان يردد:

– «الله.. يا خسارة.. الله».

تطوع أحدهم، وكان شابا عنيفا، بالنزول مربوطا بالحبل من وسطه، وفي يده حبل آخر.

تماسكت شجاعته وفراسته. ربط الجثة المختنقة، وصاح:

– «اسحبوه.. اسحبوه».

وشدوا الحبلين. احتضنه بعد ما أوثق الحبل في وسطه. كان لسانه خارجا من فمه ،ينزف الدم. عيناه ظاهرتان كالبيض.

صاح واحد:

- «الرجل راح خلاص».

احتد آخر:

- «اسكت.. عرفنا.. أنت ما تعرف الكلام».

قال آخر:

- «خلوا واحد منا يطلع على الجبل، ويرفع صوته.. يدعي الجماعة».

انطلق شاب مثل الجرادة، وصاح بأعلى صوته:

- «ايه..ايه.. طاح طايح في البير». كررها عدة صيحات وعاد مهرولا.

قال واحد:

- «بدل ما تدعون الناس.. وتجمعوا النسوان.. كان خلاص.. أرسلنا واحد يجيب كساءه من القرية، ونشيل الرجل على خشبة عريضة».

وافق بعضهم.. رأي معقول وصحيح.

لكن صاح صائح. وسمع الناس الصياح، لن يسكتوا.كلهم يجيئون في طرفة عين. لم يمض وقت.. تناثر الصوت من واحد إلى واحد. ومن الراعي إلى سارح الوادي.. إلى واحدة ومنها إلى

واحدة.

امتلأت الأرض الزراعية، المحيطة بالبئر، بالناس والفوضى. وغلبت الحادثة على كل تقليد. جاء الشبان وجاءت الشابات. جاء الرجال من كل سن، جاءت الحريم. وحتى العجائز اللواتي لا يخرجن إلا فيما ندر.

كانت الولولة تأتي وتروح، ترتفع.. وتنخفض. جاءت أم الميت مع من جاء على داعي الصوت، وقد ذهلت. لم تصدق أنه ابنها. وقعت مغشيا عليها. حملتها النساء إلى البيت. رششن على وجهها الماء. أسرعت واحدة إلى صندوق ملابسها، أحضرت قارورة عطر من «الحبشوش».. لا يخرج إلا في مناسبة غير عادية.

سحبت سدادة الفلين التي تغلق فتحتها، دلقت منه قليلا، ومسحت به مسحا جيدا على وجه المغشية وجبينها.

كن قد أحضرن عددا من الوسائد المحشوة بالعلف.. أقمنها على هيئة مبعثرة حول رأسها، وجنبها، وقدميها.

جاءت واحدة بكسرة مرمرية من البخور، وضعتها في (الجمر) على عدد قليل من الجمرات، فارتفعت ضبابيته خيوطا تملأ جو الغرفة المظلمة بالرائحة.

قالت إحداهن، عارفة بأمور الإغماء:

- «هيا.. هيا.. وسعوا.. تقدر تتنبه وتتنفس».

طال غشيانها. انتبهت وهي تهذي. قعدت على السرير المصنوع من فتايل الخصف، مدت ساقيها.. راحت تضرب بيديها الممدودتين على ساقيها.. تولول:

- «يوه.. يوه.. ياخسارتك يا ولدي.. يوه..».

هدأنها بعض الشيء، عملن لها دلة قهوة كثيرة الجنزبيل، صببن في فنجان صيني كبير، قلن لها: اشربي.. تفيقي.

أخذت منه ملء فيها. ما استطعمته. قالت بصوت فيه حسرة وأنين:

- «حطوا جنزبيل على القهوة».

قالت التي جاءت بقارورة العطر:

- «يا بنت الحلال.. قولي لا إله إلا الله.. كلنا بنموت».

وأردفت النساء المتحلقات بتعليقات متتالية، فيها الكثير من التخفيف، والصبر، وتذكر القدر، وفعل الله في بني آدم.

كان الأولاد قد تجمعوا، مثل الذباب، حول الجثة. زاد فزعهم، وزاد ضجيجهم. حركتهم أرعبت الرجال، نهرهم واحد من الواقفين، كانوا يخافون ضربه:

- «هيا.. يا الله.. انقلعوا.. دوشتمونا.. يا الله.. يا الله» تراجعوا للوراء في خطوات مرتبكة.

في تلك الدقائق، كانت بعض المواشي قد تعدت على زرع الناس، وبعض الغنم فلتت من قطيعها.

في الوقت ذاته، كان الرجال قد غطوا الميت بكساء تفوح منه رائحة بعيثران. غطوه وربطوه على خشبة استوعبته إلا قدميه، ظلتا ممدودتين وخارجتين. لكنهما سرعان ما غطيتا بحركة سريعة من أحد الرجال، كادت الأرض الزراعية المحيطة بالبئر تخلوا من الناس إلا

قليلا ! ترك الناس مكان الزحمة والحركة.. مواطئ الأقدام مختلطة، سحقت مساحات متفاوتة من نباتات القمح، والشعير، والعدس. الذي لم يطلع ثمره بعد. أمسك أربعة أشخاص بأطراف الخشبة. من الأمام اثنان، من الخلف

اثنان.. حملوا الجثة، بعدما مسحوا الكثير من الدم النازف، من الفم والأنف، ببعض الخرق المتوفرة، وأحيانا بالعمائم التي قدمها الحاضرون من رؤوسهم.

قالوا: «سنغسل الجثة في البيت بالماء الدافئ».

تقاطر الناس في طابور متداخل. أما النساء فقد سبقنهم إلى بيت الميت، عند الأم التي هدأت قليلا، وألبسن حالتها بلباس من الدعاء الكثير، والاستغفار، والندب.

أدخلوا الجثة على سرير الأم المصنوع بحبائل متضافرة من الخصف. غطوها بغطاء آخر.

امتلأت الغرفة، أكثر، برائحة البخور.

أخذت النساء بيد الأم، وأقعدنها برفق في الداخل، في مجلس الحريم.

تقدمت ثلاث منهن، أوقدن نارا مكان مشبها، في ركن المجلس، انهمكن في إعداد القهوة والشاهي، والشاهي والقهوة.

الشباب، الذي ينفع وقت النوائب، يدلف من مجلس النساء إلى مجلس الرجال. يصبون القهوة في فناجينها، ويقدمونها إلى الرجال الذين ملئوا المجلس إلى حوائطه الأربعة، وملئوا مدخل الباب بأحذيتهم، وملئوا المجلس بالهدوء والاستغفار للميت.

يشربون القهوة والشاهي، والشاهي والقهوة.. سوف يخرجون بعدها إلى السفح الذي ينحدر خلف المباني، حيث المقبرة، يدفنون الميت ربما مع أحد أسلافه من العائلة، إن كان هناك مكان لأكثر من جمجمتين، يتم الحفر، أو اللحد، تجاه القبلة.

انكسر الهدوء الذي كان يملأ المجلس:

- «هيا.. اغسلوا الكريمة قبل آذان العصر».

- «أبو الله.. إكرام الميت دفنه».

- «رحمة الله عليه.. نكرمه بقبره أحسن».

- «قبل غروب الشمس.. إن شاء الله».

قال الفقيه إن دفن الميت وقت مغيب الشمس غير مستحب، ولا بد من التعجيل. أدخلوا أمه، بعناية شديدة، إلى الغرفة المظلمة. قبلته في جبينه ووجنتيه. نحبت عند رأسه، وسرعان ماتقدم الرجال بالنعش..

قال الفقيه، بعد الصلاة على الميت:

- «يا جماعة الخير.. سامحوه.. وادعوا له».

تمتم المصلون الواقفون تجاه القبلة.

عادوا إلى بيته.. تشاوروا في مساهمات ما يمكن الاشتراك فيه، من قهوة، وعدد من أقات التمر، ولزوم الحضور لمدة ثلاثة أيام لإقامة العزاء، ومقابلة المعزين من القرى المجاورة.

قالوا إن زوجته، التي طلقها قبل سنة، بسبب عدم الإنجاب، بكت عليه.

** ** **

الوسمية شغلت الناس. زرع ويحتاج للسقي، يحتاج للرعاية، يحتاج للملاحظة، بين وقت ووقت، من الأغنام التي يهملها رعيانها، أو تعدي الحمير المتسللة التي تأكل الجهد وتأكل الرزق.

قالت النساء في الوادي إنهن لا بد أن يساعدن أم الميت (مات وحيدها) في إحضار الماء، وإحضار لقمة لها بين حين وحين. هي عجوز وتحتاج للمساعدة اليومية.

قالت واحدة إن جارتها لا تتفق معها كثيرا.

وقالت: سنلاحظ زرعها.

اتفق الرجال على بيع «الماطور»، ودفع ثمنه لأم صاحبه.

بعد السؤال عن بقية الأقساط ستحتاج إلى جزء من القيمة، إلى أن يأتي الله بفرج من عنده. قال «مسفر» انه يريد شراء الماطور.. عنده عيال سيتصرفون بحكمة.. والبئر التي سيضعه عليها ليست بطويلة.

قال انه سيدفع الثمن مقدما للعجوز، وسيقسط بقية قيمته على فترات، حسبما يسمح الحال، وإذا ما تبقى من القيمة شيء يذكر فلن يؤخره بعد انتهاء الوسمية.

قال العم سيد الأعمى:

«يا مسفر.. و أنا أخوك.. إذا كنت رجال بتدفع حق المسكينة،

وإلا فلا تشتري الماطور».

أجاب مسفر:

– «الله يقدرنا على حق المسكين.. ويغنينا عنه.. إن شاء الله يا سعيد نقدر ندفع حق الماطور».

اصطحب «مسفر» العم سعيد إلى «أبو صالح» للتشاور وقطع الوقت.

قال «أبو صالح»:

– «يا مرحبا.. من يوم مات الرجل، ما شفت هذى الوجوه الطيبة».

نادى بمن في الداخل:

– «يا عيال.. يا للي داخل.. ودنا بقهوة من ايدك»!

سمعت زوجته. لم ترد.. أحضرت حزمة من الحطب، شققته بالفأس، أوقدت القبس، وضعت الكانون، تناولت القهوة وحب الهيل والجنزبيل. وضعت «المحماس» لتحمس البن، حتى استوى بنيا فاحمايتوقد ويفرقع. حطته في «المهراس» ووضعت الدلة مملوءة بالماء على القبس.

سمع «أبو صالح» وضيفاه رنين المهراس. علموا أن «المرة» تعد القهوة.

قال «أبو صالح» موجها الحديث للعم سعيد:

– شفت «أبو جمعان» يا سعيد.. ما شفناه من يوم مات الرجل!

مضغ العم سعيد لسانه، وطن بشفتيه.. قال:

- «لا والله يا بو صالح. لكن مرته تقول.. مشغول بالوسمية.. وأنت عارف مشاغل الوسمية».

قال «مسفر»:

- «أبو الله.. كلنا مشغولين بالوسمية.. وربنا يعدلها على خير».

صاح «أبو صالح»بالأولاد، وهم يحاورون كرة صغيرة، صنعوها من الخرق البالية في الساحة، وكان ضجيجهم عاليا:

- «يا عيال.. يا جن.. روحوا اقروا دروسكم.. بطلوا اللعب».

استمروا في اللعب، في حدود ضجيج مكتوم.

صاح ثانية:

- «هاه.. عافوا اللعب الفاضى..كل يوم كورة.. كورة.. وآخر السنة تجون تبكون.. وبعدين ؟! يا الله !!».

قال أحمد، في خجل، بصوت متردد:

- «خلاص.. قرينا دروسنا.. ما فيه حاجة».

استطاب «أبو صالح»الرد، قال:

- «تعال يا مالي.. ادخل هات القهوة».

لعب مرتين أو ثلاثا مع الرفاق، وهرول جاريا وسط الساحة، دخل من الباب الخشبي المطلي بالقطران الأسود المزروع بالنقوش إلى مجلس النساء، قال:

- «هاتي القهوة»!

قالت أمه:

- «أعطيك القهوة عشان تكبها.. افلح.. أنت ما تقدر تمسح مخاطتك».

رد أحمد، في ضيق:

- «ليش أكبها. هاتي.. أنا رجل.. أقدر أشيل الدلة والفناجين».

قالت بريبة:

- «والله ما أدري.. لا تروح تكبها.. هيا تعال.. امسك الدلة في الشمال وضع الفناجين في اليمين.. يالله..».

حملها، وبخطى حذرة مشى من الساحة. أحس بحرارة الدلة في يده. وقبض بقوة على قطعة الخرقة، شد أصابعه، تقدم خطوة.. خطوة، ودخل من باب مجلس الرجال.

قال «أبو صالح»:

- «على مهلك.. واحدة.. واحدة.. رجال.. على مهلك».

عض بأسنانه العليا على شفته، غرز عينيه، على مهل، في يده الشمال. صب في فراغ أعلى فنجان من رصة الفناجين في يده اليمنى.. امتلأ الفنجان إلى خيط الذهب.. ناول أباه الفنجان.

قال الأب:

- «اسلم».

وأضاف:

- «إذا جبت القهوة.. لازم تصك بالفنجان في عنق الدلة.. لكن صب لعمك سعيد وعمك مسفر.. ضع الدلة، وروح قول لهم داخل..هاتوا لنا صحن تمر».

حط الدلة بعناية، على مهل. جرى نحو أمه.

بعد قليل جاء بصحن صغير فيه تمر متماسك..مثل العقيق الأحمر.. يقطر دبسا.

كان لعابه يسيل، ومخاطه يسيل، طول الطريق القصير. صاح الأولاد:

- «تمر.. تمر.. يا أحمد.. هات هب لنا.. حبة.. حبة بس».

نهرهم أحمد:

- «عيب.. حق الضيوف».

وضع الصحن أمام الضيوف، في الوسط. قال معتزا:

- «تفضلوا.. الله يحييكم».

تناول «أبو صالح» ثلاث تمرات، قال لأحمد:

- «خذ.. أعط رفاقتك في الساحة».

وأعطى أحمد تمرتين.

خرج أحمد..نادى رفاقه. اشتبكوا في حوار بالكرة، ناولهم التمرات، كل واحد.. واحدة.

مد يده بواحدة للثالث..قال:

- «خذ.. خذ يا غرم الله.. أنا وأنت فريق».

قال غرم الله:

- «يا سلام.. يعني أنا آخر واحد تعطيني.. هات والا خذها»!

قال أحمد:

- «والله.. والله.. أنت بتاخذ أحسن تمرة.. ما أنا قط يسترجع قذفه.. أنا جبتها لك»!

ناداه من الداخل:

- «أحمد.. تعال صب القهوة.. عيب عليك تتركنا وتروح».

قال أحمد:

- «أيوه يا أبه.. أنا جاي.. جاي».

بعد ما انتهوا من شرب القهوة، إلى آخر فنجان من الدلة..

قال العم سعيد الأعمى:

- «يا أحمد.. روح يا مالي.. وحط لي إبريق ماء.. أبغي أتوضأ».

(٧) (أبوجمعان) مع ضيفه

• كان أبو جمعان يقعد بين الزرع، وعلى حافة فلج الماء، الذي شق له بالمنقبة طريقا بين التربة، فخلق طينا رطبا ،يشبه إلى حد بعيد لون البن المحروق.

وكانت أصابع قدميه قد انغمستا في الطين، فاختلط لون القدم بلون الطين.. واصبحا متشابهين.

في اللحظة التي تهيأ فيها لنزع ورقة من«ورق الشام»الأبيض، وقد ضغط على مقدمة العلبة الفضية فقالت: «طق»،لمح في الطريق الجبلية رجلا بثياب نظيفة، في وسطه حزام عريض، بيده مشعاب قصير.. يمشي ويهز مشعابه مع مشيته المعتدلة.

صرف نظره إلى الدخان، يوضب سيجارة، على مهل. ذهب فكره بعيدا، للقرية المجاورة، وراء الجبل.. منذ زمن بعيد لم يلتق بصديقه عطية !

دارت برأسه صور متقافزة، أقربها صورة الرجل الذي لمحه عن بعد قريب في الطريق الجبلية القادم من القرية المجاورة.

نفث نفسين طويلين من التمباك، سعل سعلة محشوة بالنحنحة. أخذ يخلل لحيته مبرومة الشعرة. كانت سيجارة التمباك الأخضر ترسل دخانا أزرق مبخرا برائحة قوية، من بين أصابع يده اليسرى.

لمح الطريق بنظرة خاطفة. كان الرجل القادم قد اختفى إلا رأسه في موطئ منخفض، وبان عقاله الأسود المتفرج: قليلا.. قليلا.

اتضح لأبي جمعان عن قرب، ومن فراغات أشجار الطلح الممدودة، القادم بالضبط. هو صديقه عطية. قال في داخله: (ما يطرا الذيب إلا وهو قريب).

قال بصوت سمعه عطية، بنقاء ومحب:

- «الله يا الدنيا.. يعني لو ما نسأل عنكم.. ما تسألون ؟!»

- عجن عطية صوت «أبو جمعان» في أذنيه برخاوة، ورد:

«مصير الحي يتلاقى.. يا بو جمعان».

وقف أبو جمعان على قدميه المبلولتين بالطين ،استل أصابع قدميه باندفاعه إلى فوق. ألقى بعقب السيجارة في الفلج، فقالت: «طش «. مسح على شدقيه ببطن يده اليمنى. تقدم إلى الامام، ما يقارب ثلاث خطوات، مد ذراعية بطولهما نحو صديقه.. وكان يبتسم عن أسنان بقيت في المقدمة صفراء قانية:

- «حيا الله الغائب».

تصافحا بحرارة. وقبلا بعضهما: هنا واحدة في جانب الخد الأيمن.. هنا اثنتين في الأيسر.. وهنا أخريين في الايمن. نظرا في وجهي بعضهما.. تبادلا عددا لا يحصى من:

«طيب، وكيف الحال.. ايش الأخبار، طيب، وكيف الحال.. طيب، وكيف الحال ؟!».

قال (أبو جمعان) أنه سينتهي بعد قليل من توريد الماء للقصبات التي لم تذق الماء بعد.. ويمضيان إلى البيت.. سيجري الماء إلى الزرع المجاور، أو سيسد المجرى لحين ما يمتلئ في صباح الغد.

في الطريق إلى البيت تحدثا عن أحوال الزرع، والعيال، وأسعار السلع في سوق الخميس. قال عطية: إن سعر التمر والحنطة ما سبق لها ترتفع بهذا القدر. قال إنه اضطر لشراء أربعة «أمداد» من الحنطة: (قلّت الحنطة في البيت.. والعيال يفضلون خبزة الحنطة عن أي خبزة أخرى).

عندما اقتربا من ساحة البيت، راح «أبو جمعان»يطوف بضيفه، يحدثه عن مشاريع بيت ينوي بناءه، عقب الوسمية. شرح له أن العيال كثروا، ويحتاجون لسعة أفضل في السكن.

رأى عطية أن «أبو جمعان»لن يتعب كثيرا في إحضار الحجارة، فالجبل ليس ببعيد عن البيت.. (تنقل الجمال الحجارة من هناك.. إلى هنا.. كلها مسافة شرب سيجارة).

كان الوقت يهبط نحو آذان الظهر. طلب عطية إبريقا للوضوء. وراح، في الساحة الفسيحة، يبول ويتوضأ.

بعد الصلاة جيء بالغداء، عملته زوجة «أبو جمعان»، يفوح برائحة السمن. وسأل عطية عن زوجته، وعن العيال.

قال «أبو جمعان»وهما يدحرجان لقمهما في السمن. إن هذا السمن نظيف وجديد:

(من عمل «أم جمعان»، وعلى عطية أن يأكل).

كان «عطية» منهمكا في الأكل. وكان «أبو جمعان» يحلف، بين كل لقمة ولقمة، على عطية بالاستزادة !

حامت قطة بيضاء بأولادها.غمس «أبو جمعان» بعدد القطط لقيمات في السمن، وضعها على سفرة الخصف، تدافعت القطط

نحو يد «أبو جمعان». دفعها برفق إلى حيث وضع اللقيمات. اجتر لقمة كبيرة.. غمسها، ووضعها أمام الأم.

قال «أبو جمعان» محدثا ضيفه أنه يحب القطط، ويكرمها دائما من أكلهم.

تواصل الحديث عن القطط، والفئران. وتذاكر الرجلان ذاك الزمان الذي هاجت الفئران فيه. وذكر عطية حادثة الفأر لما غزا، في ليلة مظلمة، شحمة أذنه، وكاد يقرضها.

قام «أبو جمعان»، بعد حلفان كثير على الضيف، بالاستزادة في الغداء.

حمل الصحن، كان خفيفا. دخل به إلى «أم جمعان» طلب طاسة ماء بارد من القربة. غطست شواربه و رأس أنفه، وشرب حتى ارتوى. مدّ بها نحو «أم جمعان»، أوصاها بأن تملأها مرة ثانية. وحملها إلى عطية.

لم يسأله إن كان يرغب في الماء. وضعها أمامه برفق ،على مرتفع بداية الشباك.

قال «أبو جمعان» لعطية، وكان يعلم أنه قد أكل جيدا:

- «ما تغديت يا عطية..!!.. أخاف أن يكون غدانا ما أعجبك!».

رد عطية مؤكدا بالحلفان أن الغداء كان طيبا.

كانت علبة التمباك قد حان وقتها، لتقول: «طق»! وضّب «أبو جمعان» سيجارة في عناية. ناولها لعطية. قال عطية:

- «أفا عليك يا بو جمعان. تبغي تردني للأيام اللي راحت»؟!

تناول منه السيجارة. ضغط طرفها بين إصبعيه. انتظر «أبو جمعان» حتى يكمل بناء سيجارة له.

وضعا السيجارتين في فميهما. كانا يتكلمان، في مستقبل الوسمية، كلاما متقطعا وكانت السيجارتان تهتزان بين شدقيهما.

أشعل «أبو جمعان» عودا من علبة الكبريت، وجهه إلى رأس سيجارة «عطية». سحب سحبات قوية، إلى أن تعمرت سيجارته. أحس بطعمها على لسانه.

انطفأ عود الكبريت. انتزع «أبو جمعان» عودا ثانيا من العلبة. أشعله بحكه مضغوطة وواضحة هذه المرة.. قالت: «شخطط». ولع سيجارته، ثم ملأ فمه بالدخان، وظهرت حفرتان غائرتان في الخدين.

قال أبو جمعان:

- «ما للشاهي وقت أحسن من هذا الوقت».

جلسا متكئين على مساند العلف، المحشوة في أكياس قماش - خرائط - جئ بها من مكة، مكتوب عليها: «دقيق أمريكاني عال العال»، وفيها نجوم زرقاء باهتة، مازالت مرسومة بوضوح.

حيث كانت فناجين الشاهي، الخفيف، ترسل خيوطا بخارية، تتشابه في الفضاء مع دخان التمباك.. طاب المزاج. حان لعطية أن يفتح باب الحديث، ويطرح الموضوع بجدية. قال:

- «يا بو جمعان.. العلم خير!».

رد «أبو جمعان»:

- «خير.. قول يا عطية !».

واصل عطية:

- «الدنيا.. وأنا أخوك.. تروح وتجي.. وابن آدم كما المرجيحة.. يوم له ويوم عليه.. وأنا نويت أسافر.. أشوف كما الناس.. يمكن على طاري الحج في مكة ألقى شغلة.. الزراعة ما عادت تعطي نص ثمرتها، والدهر ما يرحم.. وأنت تعرف، مثلك ما هو بغشيم.. السفر يحتاج لدراهم.. أسبوع من هنا حتى تصل مكة.. وما تدري كيف تكون ؟.. الغريب ما له صديق في السفر إلا الدراهم !!

إن كان. وأنا أخوك، عندك شيء.. وإن شاء الله.. بعد عودتي.. أرد الصاع صاعين.. وإن كان ما عندك شيء، فوالله ما أشره عليك، واللي فيك مخبور !!»

قبض «أبو جمعان» على لحيته بيده اليسرى. ضرب على صدره بالأخرى. نظر إلى «عطية» بعينين ثابتتين، قال:

- «يا عطية.. أنت جيت والله يحييك، البيت بيتك، وأنا أخوك في الطيب والبطال.. ولو كان رأس واحد من أولادي.. أبشر بالخير، وما للصديق إلا صديقه ! »

نادى «أبو جمعان» زوجته. جاءت ملبية بترحاب..

قال:

- «هاتي الدراهم المصرورة في الصندوق».

غابت قليلا..جاءت بصرة صغيرة، تفوح منها رائحة عطر كادي.. فضها «أبو جمعان».. وضعها قدام عطية.. وقال:

- «والله لتطلب.. أطلب يا عطية !».

قال عطية أنه يبغي عشرين ريالا.

عد «أبو جمعان».. فوجدها أكثر من أربعين ريالا.. كانت قديمة.. نقد عطية عشرين ريالا.

قال «عطية» بامتنان:

- «عشت.. وأنا أخوك.. الله يخلف عليك».

استأذنه في الذهاب. رافقه إلى آخر الساحة.. تصافحا، ومضى عطية ناشرا كلام التوديع الحار.

قالت «أم جمعان» لزوجها:

- «يا مخلوق.. وراك تعمير بيت.. لك سنتين تحط القرش على القرش.. كيف تروح تسلف فلوسك »؟

نهرها بعين حمراء، أظهرت عتابا قاسيا. قال أنها لا تعرف حسن التصرف و لا الرأي.. هي ناقصة عقل ودين.. هي تسكت خير لها!.. الفلوس فلوسه هو.. وهو حر في إنفاقها.

قالت محتدة:

- «أيوه.. نص الدراهم تروح في التمباك.. ونصها تروح أسلاف».

استعاذ بالله، وحوقل كثيرا.. رأى من الصواب مغادرة البيت، والتفسح نحو سعيد الأعمى... فمنذ جمعتين لم يزره.

** ** **

وصل «أبو جمعان» إلى «سعيد الأعمى». خلع نعليه، المصنوعتين من سيور الجلد الأصلي، عند الباب الخشبي المتين. نادى باسم «أبو مسفر»، وجاءه الرد بالترحاب.

سلم «سعيد» على «أبو جمعان»،

سأله عن حاله وحال عياله. قال.. من يوم موت (فرحان) بالماطور لم يتقابلا.

كان الهم باديا على «أبو جمعان»، رابضا في وجهه. لكنه قال أنه بخير، والعيال بخير، وزوجته بصحة كما الفرس.

وأضاف:

- «الله ينتقم من النسوان».

عرف العم سعيد أنه دخل في عراك كلامي مع زوجته، لكنها غيمة ولا تلبث أن تزول، والكل يتخاصم مع امرأته في أبسط الأمور.

دخلت «سعدية» زوجة العم سعيد الأعمى. كانت تحمل على ذراعيها حزمة حطب، لا تزال عيدانه خضراء. سمعت «أبو جمعان». اندفعت بحماس.. رمت الحزمة إلى الركن القريب مكان القبس، التفتت إلى مجلس الرجال الذي يفصله باب عريض مفتوح، قالت:

- «سلام».

ووجهت قولها إلى «أبو جمعان»:

- «ليش يا بو جمعان.. ينتقم من النسوان ؟! وأنتم الرجال.. ليش ما ينتقم منكم ؟.. وألا أنتم ملائكة ؟!».

أحمرّ وجه العم سعيد الأعمى قليلا. صوّب وجهه نحو صوت زوجته، رجرج عينيه البيضاويتين إلى فوق وتحت..لكنه لم يتكلم.

واصلت:

- «كل شئ لكم حلال.. الكلام والخصام والضرب والشتيمة!».

تنحنح العم سعيد الأعمى. قال بصوت قوي، يريد أن يفرد رجولته:

- «يا مرة.. خلاص..لسانك أطول منك».

تراجعت، وقلبها ممتلئ بالكثير من الغيظ والكلام غير المباح. قالت:

- «العيب.. عندنا ضيوف، أطلع شوف «أبو صالح»ايش يسوي مع مرته.. حتى لو قالت له بت الليل واقف!».

رد العم سعيد الأعمى:

- «أقول نسوان صحيح.. ما يفتحون كلام ويسكتون أبدا».

تدخل أبو صالح منهيا الكلام:

- «يا سعيد.. يا بو مسفر.. الله يخليك لو ما كانوا النسوان.. ما نسوى شئ بدونهم، ما غير الله يهديك.. والكلام انتهى!».

كان «أبو جمعان» يتنفس الدخان بحرارة، وينفخ في الهواء.. يمضمض فمه بالدخان، وينفخ. قال، في قرارته:(استجرت يا عمرو

من الرمضاء بالنار). رمى بعقب السيجارة في النار المتأججة أمام جلسته. وقال لزوجة العم سعيد الأعمى:

- «بالله يا أم مسفر.. هاتي لنا ملء الطاسة ماء».

قالت:

- «أبشر.. ولو كان..!».

لم تكمل. لكنها مضت إلى حيث القربة المعلقة عند المدخل. فتحت فمها، أفرغت من مائها المعطر برائحة القطران. ملأت الطاسة إلى أكثر من نصفها، وجاءت بها إلى مجلس الرجال. كانت الطاسة تدفع بقطرات جانبية من الماء الفائض.

(٨) في البئـــر

• إلى «عيون الحمام» سرحت النساء والبنات، حاملات القرب السوداء، المطلية بالقطران.. للاستقاء من «عيون الحمام» لا يحتاج لدلو، ولا لعضل يشد، ويرفع، ويصب. الماء ينبع بسخاء من تحت الصخور.. يمضي مهرولا إلى أن يجد له مجرى.. يختفي، ويظهر بعيدا في مجرى آخر، أو يبتلعه مسيال عميق.

جلسن على طرفي المجرى، يغترفن الماء بعلب السمن الفارغة، ويملأن القرب بالماء الدافئ: اثنين..اثنين، واحدة تمسك فم القربة، واحدة تغرف وتصب.

دارت الحكاية بين لسان ولسان، بين تذمر، وخوف، وعتاب، وغير عتاب.

قلن: خائفة وتستاهل الموت !

قلن: العيب من الرجل الذي تركها !

قلن: لا.. العيب من أبوها.

حكت واحدة الحكاية بوقائعها، دونما لوم، قالت:

– «يقولون إن الرجل كان يحب البنت.. وكان بعد ما ينامون الناس.. يروح وراء شباك البداية.. من وراء البيت.. يحذف بحجر صغير.. تسمع الحذفة، تفتح البداية وتشوفه واقف في برد الليل ينتظر ردها.

قالوا.. قفلت الشباك، أهلها راقدين..ندرت عند الباب الذي

في الوراء.. فتحت، وقالت له أدخل.. أهلي نايمين كلهم صغير وكبير.. تعال.. ادخل !.. ودخل..».

علقت واحدة:

– «الله يقطع نصيبه..كيف يدخل ؟!»

استمرت الأخرى تحكي:

– «يقولون..دخل.. ورقد معها في فراشها.. واستمر على هذي الحال.. يوم بعد يوم.. يوم..بعد يوم..

وفي يوم.. شافت بطنها كبر.. وعرفت إن الموضوع كبر».

قالت واحدة، بتعجب:

– «يوه.. يوه !».

واصلت:

– «قالوا..راحت شكت الأمر لأمها..قالت.. أبوك لو درى يذبحك..خلاص.. اسكتي.. عندي وصفة. وراحت تطبخ لها العرفج والبصل، وتسقيها.. لكن ما شافت فايدة.

قالوا.. يوم الخميس اللي راح.. يوم السوق.. دوروا أهلها عليها..دوروا.. ما لقيوها، نشدوا القريب والبعيد.. ما لقيوها.

قالوا..أمها ماتت من الخوف في نفسها..لكنها سكتت. راحت عند الرجل.. صاحب بنتها، نشدته.. قال ما أدري».

قالت واحدة:

– «الله يخيبه».

واصلت:

- «الرجل كان يدري وين هي..لكن كان جبان !».

يقولون..باتت عنده هذيك الليلة. وصبح الخميس.. عند آذان الديك..خرجت من عنده.. وراحت عند بير بعيدة.. ورمت نفسها.

يقولون.. الرجل حاول فيها..حاول فيها، وقال لها يا بنت الحلال.. أقعدي معي، وبكرة نشرد بعيد عن هذي الديار، واللي يصير.. يصير ! لمن ما رضيت. حزمت وسطها بشرشف، وسعت. حتى عند البير ورمت نفسها.

قالت واحدة:

- «الله يكفينا..وليش ما سمعت كلامه ؟».

قالت واحدة:

- «لا والله.. الا راحت على النار. لكن كيف عرفوا بعدين؟!».

- «يقولون..أبوها راح للحكومة وسألهم.. راحوا يدورون.. من الخميس إلى الخميس يدورون.. ودلهم واحد من ذيك القرية على بير فيها ريحة عفنة.. ولقيوها فوق الماء !!».

نهرتهم واحدة:

- «هيا.. هيا.. تأخرنا.. الله يرحمها.. هيا».

مضين يخضن ويزدن في الحكاية.

كن قد تأخرن عن بيوتهن.. كانت الطريق تكشف عن قطرات ماء مرتطمة بالتراب، وكانت القطرات تنز من القرب السوداء.

(٩) الـزلـة

كانت صلاة الجمعة قد أديت. لم يغب أحد من أسفل القرية ولا من أعلاها. جماعة.. جماعة، وجماعة واحدة كبيرة. الكلمة واحدة، والرأي واحد، والمشورة واحدة: في الطيب والبطال. في مراح العروس، أو حضور عزاء الميت، عندما تنوب النائبة، أو يحدث اعتداء من القرى المجاورة، أو من القبائل البعيدة.. الجماعة كلها واحدة!

يجتمعون في بيت الشيخ، يتشاورون، كلٌ يرى رأيه.. يخلطون المشاورات، ويخرجون بقرار ما ينفذ منه الماء.

جلس كل من أنهى ركعتي السنة بعد الصلاة خلف الإمام. جلس، في ساحة المسجد، على رؤوس أصابع قدميه، يسلم على الغائب والقادم من السفر، وينتظر خبرا يذاع او رأيا يعرض.

خرج ثلاثة رجال من المسجد، محتزمين بالخناجر. كان لكل منهم حزام جلدي متين، مزخرف بنجوم فضية، وسيور دقيقة ملونة.

سلموا على الجماعة سلاما طيبا!.. قعدوا جانبا، حتى خرج كل من في المسجد. رأوا في الجماعة ناسا أغرابا.

بدأ واحد من الرجال الثلاثة الكلام. كان يتكلم بترتيل مرتب، يقف بعد كل قول، ويقول: «استغفر الله العظيم».

قال:

– «يا جماعة الخير.. العلم خير..كلنا أخوان و رفاقة.. استغفر

الله العظيم..

وادينا ووواديكم نعتبره واحد.. وبلادنا وبلادكم واحدة.. وسوقنا واحد.. والله واحد.. استغفر الله العظيم.. وأظن الباطل ما يرضيكم.. والحق لازم يعدى فوق الصغير والكبير.. استغفر الله العظيم.. ونحن جينا نشتكي.. وجينا نطلب الحق.. والحق ما يرفضه إلا الجاهل، أو المجنون..استغفر الله العظيم.. الأيام الأولى من هذا الأسبوع.. تعدت غنمكم على حمانا، وهجمت على الزرع.. أكلت، وزهقت مثل ما زهقت، وعيالكم اللي يرعونها.. تعدوا على عيالنا وضربوهم.. استغفر الله العظيم.. وأظن هذا العلم ما يرضيكم.. وما يرضي أي عاقل!»

وأضاف:

- «وأظن أنكم أهل للحق، وسلامتكم!!».

انتشر الهدوء. كانت العيون وحدها تقرأ الوجوه، وجوه من يمتلك الأغنام، ويسرحها للوادي بالأخص. أفسح الهدوء سكة لقول الشيخ. تنحنح الشيخ، رفع مقدمة عمامته التي تغطي جبينه إلى فوق مقدمة العقال.. قال:

- «سلامتكم!».

وأضاف:

- «جيتم تطلبون الحق.. ومثلما قلت، ما بيرفض الحق إلا الجاهل والمجنون ولابد نشوف الموضوع، ونتحقق من اللي حصل.. لو بان لكم عندنا حق.. ابشروا به.. ولو بان لنا عندكم حق.. فالله ما يضيع الحق!».

سكت قليلا، وأضاف:

- «و سلامتكم».

قال الرجل:

- «انتم تعالوا.. وشوفوا التعدي.. وبعدها نتفاهم على الخير».

وافق الشيخ بلسان جماعته، وانصرفوا. اتفق أفراد الجماعة على اجتماع يكون في مقدمته الشيخ، وأصحاب الأغنام.. كان الاجتماع في بيت الشيخ.

جاءت جماعة من البيوت المتناثرة في القرية.. حملوا عصيهم، ومشاعيبهم، واحتزموا بالجنابي والخناجر، توافدوا واحدا بعد الآخر.

امتلأ مجلس الشيخ.. كانت الأحذية تغطي المدخل عند الباب، كما أنها تربض عند باب المسجد.

جاءت القهوة.. والشاهي، والقهوة.. صبها الشباب الذي يعرف شغله في الملمات.

بعد تناثر الكلام، من بعيد، حول الموضوع.. قال الشيخ:

- «يا جماعة الخير..!».

وهبط الهدوء.

أضاف، بدون انقطاع:

- «العلم خير..نحن كلنا معروفين من أعلى القرية إلى أسفلها.. وما كلنا عندنا غنم.. بعضنا عنده غنم.. لكن بعضنا ما يوصى عياله

لما يسرحون يرعونها.. واللي عنده غنم معروف.. لازم نرسل اثنين منا يروحون يشوفون مكان التعدي.. إن كان زلة تستاهل نروح لجيراننا.. ونغطي ونوطي.. نختّم لهم بالحق..فهذا واجب علينا.. وإن كان العلم مختلف.. فغضب الله على الشيطان.. وأنتم أحسن نظر.. ايش تقولون ؟!».

قالوا بصوت واحد:

- «هذا رأي صحيح».

وأضاف واحد، متأخر:

- «رأي صحيح.. والله !».

قال الشيخ:

- «نرسل أبو جمعان وأحمد بن صالح في هذه الساعة.. ويجون لنا بالخبر».

عدل «أبو جمعان» من قعدته، وأرسل عينيه، بتأهب ،إلى «أحمد بن صالح».. قال:

- «اتكلنا على الله».

التقطا مشعابيهما، نهضا، قالا:

- «في أمان الله يا جماعة».

ردوا:

- «الله معكم».

أودعا باب المجلس قفاهما. هبطا نحو الوادي، وعند سفح الجبل

الواقف بين القريتين — وقفا على حدود الحمى، قفزا على حجيرة مرتفعة البناء قليلا.

حاما في مكان التعدي.. طوفا شمالا، ويمينا. فوق، وتحت. وجدا أثراً صارخا لتعدي الغنم. كما لقيا بقايا عصى متكسرة. تيقنا من أن التعدي وقع، ولابد من الاعتراف بفعل الخطأ.

قال «أحمد بن صالح»، مداريا:

– «نأخذ واحد من جماعتهم.. وواحد من قريتنا.. يحلف بالله.. نأخذ جمرة يحطها كل واحد على لسانه.. واللي تحرق لسانه فهو وجماعته كذابين.. ايش اللي يثبت أن عيالنا هم اللي تعدوا بغنمهم؟!».

قال «أبو جمعان»بغضب وانفعال:

– «يا أحمد.. هذا حرام.. وأنت كبير في السن.. الحق واضح.. والتعدي واضح.. ولا تحتاج يمين ولا جمر.. اتق الله يا شيخ !!»

همهم «ابن صالح»، ثم قال دفعة واحد:

– «طيب..ليش تتضايق..أنا قلت وايش رأيك.. لو تشوف أنه رأي معقول.. والا نعود ونقول لهم.. شفنا التعدي واضح وما ندري إذا كان من عيالنا، ولا من غيرهم».

قال «أبو جمعان»بحسم:

– «لا..لا.. الحق حق.. هيا..نتكل على الله، ونقول لهم على اللي شفناه».

مشيا. كان أحمد بن صالح يمشي بخطى ثقيلة.

صاح الأولاد لمن بالمجلس:

- «أبو جمعان وبن صالح جاءوا».

بعد قليل من الانتظار سمع صوت نعليهما في الساحة. دخلا، سلما بصوت خفيض، جلسا.

جلس الشيخ:

- «وايش العلوم ؟!».

قال «أحمد بن صالح»:

- «العلم خير.. التعدي لقيناه.. لكن ما ندري من هو راعيه».

قال «أبو جمعان»:

- «التعدي باين..ولقينا عصى مكسرة..وأول الحمى مأكول.. والحق حق».

قال الشيخ:

- «غضب الله على الشيطان.. لازم نجهز منا ستة رجال.. يروحون.. ويختمون بالحق.. يوم الجمعة.. يحطون سلاحهم في ساحة المسجد.. ويقولون لهم اطلبوا الحق».

توالت الأقوال:

- «حق.. والله حق».

- «واجب.. والحق ما نضيعه».

- «بكرة ندور على الحق عند غيرنا.. نلقاه».

- «نجهز الرجال يوم الجمعة.. إن شاء الله».

صباح الجمعة.. تجهز ستة رجال.. كان «أبو جمعان» أحدهم. لبسوا زين الثياب.. احتزموا بالخناجر، وأخـذوا في أيديهم المشاعيب. كان ثلاثة من الرجال يقلّون على أكتافهم ثلاثا من البنادق البلجيكي، وفي رؤوس البنادق الثلاث، إلى جانب أذن كل بندقية، مشاحن رفيعة مثل الإبر الكبيرة، حديدها أسود، لا يلمع فيه إلا مكان اليد، خشبه داكن مثل الحناء المحروق.

ودعوا بعض الجماعة في بيت الشيخ، ومضوا ببطن الوادي، في الطريق الجبلي المحفوف بالصخور والحصى: كانوا يتحدثون عن مواجهة الناس في ساحة مسجدهم قالوا:عددهم ليس كمثلنا.. صحيح منهم رجال أطوال أشناب، يعرفون الكلام، والأخذ والرد، لكن ما نتركهم يأخذون عنا فكرة التقصير.. أجدادنا كان الواحد منهم يسوى قبيلة.. في حرب..في نائبة.. في سوق.. في عرضة.. في كل العلوم.

انتهى بهم الحديث عند أول بيت، أسفل الجبل، من بيوت الجيران في القرية. هجدوا.. كانت خطواتهم تصطك بحجارة الطريق.

فاجأوا صبيانا يلعبون، سألوهم عن مؤذن الجمعة. أجاب صبي بلسان يسيل بالخوف والتردد.. أن المؤذن قد أذن قبل أن يخرج مع رفاقه.. سألوه.. متى خرج.. قال أنه خرج معهم يوم خرج بعد ما طلع من البيت.

لم يجدوا جوابا يمكن الاعتقاد فى صدقه. مضوا إلى وسط القرية.. حيث المسجد. لا بأس أن تقدموا قبل وصول الفقيه.. كانوا طاهرين.. مستعدين صوب المسجد..و ليس لدخول أي بيت آخر

قبل الخاتمة، وعرض واجب الحق.

دخلوا المسجد، وصفوا أحذيتهم، الاثنى عشر، جانبا، عند الباب. وقفوا في صف واحد.. الصف الثالث، الرابع للأولاد ومن يجئ من الوادي متأخرا.

عندما دخلوا سكنت ضجة الذين يقرؤون في المصاحف القديمة.. تجمعت النظرات في الركن.. عند موضع البنادق والمشاعيب.

حدثت المفاجأة: الفقيه التاجر.. أخرج ورقة من جيبه وقرأ:

«علي بن صالح.. ثلاثة ريال، بتاريخ ...».

ظن المصلون أنه حساب يوم القيامة، وقد جاء في خطبة الجمعة!!

بسرعة، طوى الورقة. دسها في جيبه.. أخرج ورقتين في طية واحدة. تنحنح مرتين.. ثلاثة.. وقال:

– «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده».

استمر في الخطبة المنقولة من دفتر الخطب، قال في الخطبة الثانية:

– «اللهم احم حوزة الدين، ودمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين.. اللهم أجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك، اللهم انصر حاكمنا، واعنه على أعداء الإسلام والمسلمين».

رددوا خلفه:

– «آمين.. آمين.. آمين».

واختلطت «آمين» بترديد البعض «آنيم.. آنيم».

عقب انتهاء الصلاة، قبل خروج المصلين من المسجد، وقف واحد من الرجال الستة.. قال:

- «يا جماعة الخير.. عندنا بعد الصلاة كلام».

عاد إلى صف آخر، صلى ركعتي السنة. خرج المصلون، انتعلوا أحذيتهم، جلسوا على رؤوس أصابع أقدامهم، فوق تراب الساحة، دون أن يتغيب نفر واحد.. انتظروا بداية الكلام.

قال أكبر من في الرجال الستة:

- «السلام عليكم يا جماعة».

ردوا:

- «عليكم السلام».

قال:

- «العلم خير..حنا جينا.. ولقينا عيالنا تعدوا على حماكم.. والتعدي واضح.. واللي تأمرون به.. انحن حاضرين».

تقدم، ووضع سلاحه وسط الساحة.. تقدم الخمسة، ووضعوا أسلحتهم إلى جانبه.

عاد إلى مكانه وواصل:

- «سلاحنا بين أيديكم.. جينا نختم بالحق.. ونعترف بالتعدي».

ساد صمت قصير، قال شيخهم:

- «انتم جيتم.. والله يحييكم.. والاعتراف بالحق فضيلة» وأشار بحركة من يده. قام رجل من الرجال وجمع سلاح الضيوف. فهم

الرجال الستة أن الموعد في مجلس الشيخ.

جاء الجميع إلى بيت الشيخ..خلعوا أحذيتهم. كان الفقيه يجلس إلى جانب الشيخ.

جاءت القهوة، والتمر، وجاء بعدها الشاهي.

قال الشيخ:

- «الله يحييكم..خذوا سلاحكم.. ولازم نكتب بيننا ورقة. ونذكر فيها الحادثة.. ونذكر حضوركم.. وخاتمتكم».

وافقوا.

قرأ الفقيه الورقة. كتبها بقلم حبر قديم.. كان يغمسه في قارورة الحبر، يكتب سطرا ويغمسه. قال:

- «بسم الله الرحمن الرحيم..

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين. وبعد، أنه في يوم الرابع من شهر جمادى، اجتمع ستة من رجال أهل قرية «الجبل».. عدد أسمائهم.. مع شيخ وأهل قريتنا «الوادي». وذكروا معترفين بزلّة غنمهم وعيالهم على حمانا. والذي يقع على الحد بيننا وبين القرية المذكورة، وذكروا في اعترافهم بواجب الحق، أن عيالهم اعتدوا على عيالنا بالضرب والشتم، وكانوا هم المبتدئين، والبادي أظلم. واليوم جاءوا بسلاحهم وطرحوه في ساحة المسجد، وضربوا على صدورهم، أنهم مستعدين بكامل الحق. وبعد السماح والدماح، وصفاء النفوس، تم رد سلاحهم بكامله، والاتفاق على غرامة أربع من الغنم. تذبح في قريتنا، ويحضرها الستة المذكورون مع شيخهم،

وهي سبل وسابلة إذا لا سمح الله وحدث اعتداء من جهتنا.

شهد الله تعالى علينا، وأذنا لمن يشهد. والله خير الشاهدين».

دارت المحبرة على عدد من الجالسين، غمسوا إبهاماتهم في الحبر، وغمس الشيخ راحة إبهامه، وغمس الرجال الستة إبهاماتهم، وامتلأ ذيل الوثيقة بالبصمات.

نسي الشيخ أن يبصم بختمه.. استدعى ابنه، جاء بختم مثل الخاتم الفضي الكبير، مربوط بمنديل أحمر مزهر. غمسة في المحبرة، وضغط به إلى جانب بصمته. غطى الحبر المتشعب طرف الحروف، وكاد الاسم يختفي.

كتب الفقيه ورقة ثانية من الورق المقوى، الذي يصلح للحفظ، مثلما كتب في الأولى.

دارت المحبرة والورقة، توالت البصمات، وجاء ختم الشيخ في أسفل الذيل.

(١٠) أحمد يتعلم أشياء جديدة

• دخلت الشمس، بتسلل دافئ، من بداية الشباك الشرقي. حملت معها ذرات صغيرة اختلطت بنورها.

جاءت القطط، وألقت بأجسادها في التمدد الطويل من فتحة الشباك، أضاءته، وأدفأته الشمس.

كان أحمد يقعد مع إخوانه، يشربون القهوة بالجنزبيل، يبللون كسر الخبز في الفناجين، حتى تصير لينة، ويأكلونها.

كانت أمهم قد أوصت بنتها بمراعاة إخوانها عندما يصحون متأخرين، ويأكلون فطورهم. أحس أحمد وهو يقضم كسرة لم تلن في القهوة بكرة صغيرة قاسية تذهب وتجيء مع اللقمة. قنفذ وجهه، انكمشت فتحتا عينيه، زر حاجبيه.. قال:

– «ضرسي.. ضرسي طاح».

نقل اللقمة في يده اليسرى. بدون بحث طويل لمح قطعة مرمرية بيضاء بجذور مشرشرة، كانت تختلط باللقمة السمراء المضوغة.

– «يا حظك.. أعطها لعين الشمس»!

قبض على الضرس بين أصابعه.. طرحه في راحة يده. تلمّح في جوانبه، و نهض بخفة القط حين يلمح الكلب.

خرج إلى الساحة، تبعه إخوانه.

قالت خضراء:

- «يا أحمد.. احذفه في البعيد».

شد يده اليمنى إلى صدره..شدات مكتنزة بالقوة، لواها في الهواء ثلاث مرات.. أخّر قدما وقدم قدما.. حذف بالضرس تجاه الشمس.. قال:

- «خذي يا عين الشمس ضرسي.. وهاتي ضرس غزال».

قالت خضراء:

- «ما هو بكذا..قول.. خذي يا عين الشمس ضرس الحمار وهاتي ضرس غزال».

أعاد:

- «خذي يا عين الشمس ضرس الحمار.. وهاتي ضرس غزال».

قالت خضراء:

- «تعال.. مضمض فمك بالماء والملح».

قال:

- «الملح يحرق الفم».

قالت:

- «ما يضر.. علشان الدم يوقف».

أحضرت فنجان قهوة من الصيني، ملأته بالماء، ووضعت وسطه فصين من الملح، حركته بهدوء بسبابة يمناها، كما يحضر الدواء.

قال إخوانه:

- «يا حظك.. يا أحمد.. بيطلع لك سنون غزال!».

شعر أحمد بالتعالي. قال أنه بقى عليه ضرس واحد، ويصبح رجلا من الرجال !

** ** **

مضت أيام. كان أحمد يشعر فيها بحاجة إلى شيء لا يمكنه الإفصاح عنه.. عاد يفكر في أشياء كبيرة وجميلة.. قال في نفسه متخوفا:

(لو أنهم يعرفون) !

قرر أن يحكي لرفيقه (غرم الله) عن احساساته المكتومة.. وصمت.

سأله رفيقه ،الذي يكبره بسنة واحدة:

- «يا أخي.. تحب تتزوج مين.. من البنات ؟!».

فوجئ «غرم الله» بالسؤال. قال:

- «يعني !! لازم أتزوج حميدة بنت خالي.. وخالي وخالتي يحبوني.. وحميدة تستحي لما تشوفني عندهم !».

قال أحمد:

- «طيب يا مجنون.. هي أكبر منك.. كيف تخطبها ؟!».

رد «غرم الله»:

- «لازم أخطب واحدة.. عزبة».

قال أحمد:

- «حميدة أكبر منك بسنتين، وعمرك ثلاثة عشر سنة هالحين!».

قال «غرم الله»، باستنكار:

- «يا سلام.. وايش يعني.. الفرق سنتين.. وأنا رجل قلعت كل ضروسي.. وطلع لي بدالها ضروس غزال».

قلب أحمد موضوع الحديث.. قال أنه شاهد مرة حمارا و حمارة بيضاء !.. والحمارة ترخي برأسها إلى الأرض. قال أنه أحس بدمه يفور في جسمه.. ملأ الدم وجهه من الخجل!

بعد سرَحَان قليل، قال أحمد:

- «..مرة سألت أمي.. من أين تلد العيال.. تلمحت فيه.. وقالت لي.. عيب استح.. العيال يجون من فوق.. من فتحة السقف».

أضاف:

- (استحيت أسألها عن زوج فتحة السقف !).

قال «غرم الله»:

- «تفتكر يا مغفل انها بتقول لك.. !»

.....

.....

(١١) حمـارة حميـــدة

• راحت من الوادي، وجاءت من الطريق المنحدر تحت بيت الشيخ..هزت رجليها إلى جانبي بطن حمارتها، فزعت الحمارة العجوز، كانت ترفع رجليها، كما لو كانت تخطو بثقالات من الحصى.. ثقيلة بطيئة. حركت الحمارة ذيلها، نفضته في الاتجاهين: من الشمال، ومن اليمين، ومروحت به في الهواء.. تطرد «الهمج» المتهافت حول مؤخرتها مثل حومة الذباب.

شخرت. شخرت، رفعت رأسها إلى امتداد رقبتها المغطاة بشعر متقافز مثل الإبر، لوت الرباط وقتما اهتزت وفزعت.

أوقفتها حميدة، وهي تدعوها للثبات، على مهل:

– «هوش.. هوش.. هوش..!!».

ثبتت الحمارة.. اختلت ركبتا حميدة، كادت تقع إلى الخلف.. غير أن قبضتيها المتماسكتين شدتا «الحلس» المربوط تحت رقبة الحمارة، وتحت ذيلها.. أمسكت الرباط في شمالها، وتمسكت بقبضتها اليمين..هزت برجليها وقالت:

– «هش.. هش».

خرجت من بين أشجار العرعر عميقة الخضرة، اقتربت من ساحة البيت. أوقفت الحمارة بخبطة جامدة في رقبتها، ونزلت.. فقالت الحذاء المجلدة على الأرض: «طرق»، بقوة.

سوت ثوبها الأسود المطرز، من الخلف ظهرت التجاعيد متكسرة مكان مقعدها.. صفعت طرف الثوب، وعملت الشرشف:

لفة لفتين، ولفه أخيرة من فوق الرأس حتى الرقبة والأكتاف.

قادت الحمارة من رباطها الطويل، وركعت تربطها إلى جانب «المعلف» الخالي..مشت إلى وسط الساحة، ونادت:

- «يا أهل البيت.. يا عيال !».

خرجت بنت في العاشرة، لمحت حميدة، امتلأت عيناها، جرت إلى الداخل.. قالت:

- «أبي.. أبي.. حميدة جت !».

قال الشيخ، على الفور:

- «أهله الله...عدّي».

خبطت حميدة على حلق الباب، قال الحلق الكبير: «طرك.. طرك».

مشت إلى الداخل خطوة واحدة. كانت الشمس قد سيطرت على النظر، عندما دخلت لم تقدر على التأكد بعينيها.. قالت:

- «السلام عليكم.. والعون».

مدت يدها.. صافحت الرجل، لثمت زوجته والبنات: لثمتين.. لثمتين، على الخفيف. تواسعت البنات. قعدت حميدة إلى جانب امرأة الشيخ، سألت عن الحال. انبرم الحديث حول الشمس المنصبة مثل السهام، بعدما كانت الرياح والبرودة تميتان الناس قبل دخول الوسمية.

اطمأنت إلى أن باب الحديث انفتح.. طرحت الكلام على

الشيخ:- «العلم خير.. قل يا الله في الخير !!».

قال:

- «خير.. قولي».

رفعت صوتها:

- «أنت تعرف.. بلادي وزرعي قليل.. والناس عينهم في حق الضعيف.. واليوم ندرت الوادي أطوف.. لقيت فيه ناس سووا طريق من وسط الزرع.. ما أدري متى.. لكن الزرع مدهوك.. وهذا الفعل ما يرضي الله.. ولا يرضي رسوله.. وذا الحين.. أبغيك تقول للناس في المسجد..هذا الكلام ما يصح..»

ارتفع صوتها أكثر:

- «هذا الفعل ما يصح.. ولا ايش رأيك ؟!»

ابتسم الشيخ.. ردد بصوت هادي:

- «ما حصل إلا الخير.. أبشري بالحق».

قالت:

- «الحق.. أن هذا الفعل ما يصير !»

قال:

- «تعرفين.. من هو اللي عدى.. وسوى الطريق ؟»

قالت:

- «لو كنت أعرف..كنت فضحته من الله ومن خلقه».

قال:

- «الحل..نكلم الناس يوم الجمعة في المسجد.. وما فيه أحد يرضى بالخطأ..».

كانت ستضيف كلاما كثيرا، لكنها ابتلعته، نظرت إلى زوجة الشيخ:

- «كيف حال عيالك ؟».

قالت زوجة الشيخ.. أن العيال يحبون اللعب في الشمس ،تحت أشجار اللوز.. وتمنت ألا تصيبهم ضربة الشمس، فطول الوقت يجلسون هناك.

قالت أنها ستقوم لتعمل دلة قهوة بالجنزبيل.

لم ترد حميدة. حس الحصى بسكوتها، ترغب في القهوة.

قام الشيخ، قال أنه سيروح يتفقد العيال تحت أشجار اللوز، فالثعابين تخرج كثيرا وقت القيلولة.

(١٢) أمطـرت

استوت الحنطة، وسنابل الشعير إلى جانبها.. أما العدس فظهرت حبوبه خضراء ممتلئة.. استمرت بشحوب واصفرار، أو اخضرار، فنضوج.

كانت السماء صافية منذ الصباح، إلى أن يؤذن للظهر، ويأكل الناس غداءهم: في الغالب طبيخة العدس، أو بقايا الذرة المطبوخة بالملح والبهار.

من بعد الغداء وزوال القيلولة، تهب رياح رطبة، تغيم السماء.

استمرت الحال لأيام سبعة من الخميس إلى يوم سوق الخميس. يجلس الناس بعد الظهر في البيوت. يكبر التوقع ويكبر، كلما صار لون الغيم كحلا.

لابد من سقوط المطر، والغيم دليل يعلن مجيئه.

صدر الهابطون إلى السوق يوم الخميس، بحميرهم المحملة بالتمر، والنبق، والشار، والريحان، والكادي، والسكر، والشاهي، والبن، والجنزبيل، وحب الهيل، والدخان الأخضر وأشياء أخرى.

باعوا العنب، والبرشومي، والأنقاص والحماط، والقضب في سوق الخميس.. وسط القرى المجاورة، واشتروا بأثمانها حاجياتهم.

ربط الناس حميرهم، وشالوا الخروج المنتفخة بالمقاضي.. جلسوا للغداء.

دقدق الراعد.. جاء رشاش خفيف، بلل التراب في الساحات. قال الناس:

«يا كريم».

استغفر الأطفال الرب، وأرعدت. أرعدت، رمت بالماء على هيئة قطرات كبيرة. امتلأت الخلجان والسواقي، وجرت المياه إلى مواطئ الزرع والشجر.

(لو زاد عن هذا الحد يضر بالزرع.. يضر السنابل ويفتتها، قال الناس:«سقينا وروينا». توارد الخوف في القلوب: سيضر بثمار اللوز والمشمش.. وكل الثمار الطالعة و ما بداخلها)

خرجت زوجة العم سعيد الأعمى من الباب. رمت بمنفاخ القبس في الساحة، وقالت لعيالها أن المنفاخ يرد من غزارة المطر. وحذرتهم من الخروج.. فالصواعق لا ترحم أحدا !

تساقطت قطرات كبيرة، من فتحة السقف، على القبس المشتعلة تحتها. وتصاعدت:

«طش.. طش.. طش».

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

- «من يوم الخميس اللي فات.. وأنا أقول لك..غطي الفتحة.. لكن عنادك ما يودي لخير !».

غطت رأسها وكتفيها بجبتها القصيرة، صعدت من الدرج القصير، أغلقت الفتحة بالصحن النحاس القديم. وقع المطر «طن.. طن.. طن».

وضعت على الصحن حجرا، كان بجانب الفتحة.. هبطت بحذر ودخلت، رمت بجبتها جانبا، حتى تتفقد الأولاد، وتعلقه في وجه الدخان قدام القبس.

قالت لزوجها:

- «هـاه.. خلاص.. غطينا الفتحة.. فكنا من الموضوع.. أهجد!».

كاد يخرج كلاما ساخنا..لكنه صنت لوقع المطر على السقف وفي الساحة.

خف المطر قليلا.. قليلا.. حتى توقف. خرج الأطفال إلى الساحات يغزلون الحكايات عن قوس قزح.

امتلأت المزارع، وفاضت البلاد بماء السواقي.

قال العم سعيد الأعمى لولده الكبير:

- «ذا الحين..الحمد لله.. وأنا أبوك..لا تسرح تسقي الزراعة بالثيران..ولا تغدي ولا تجي.. سقاها ربك من فوق!».

رد مسفر، وهو يفرك كفيه قدام لهب القبس، وقد قرفط جسمه القصير في «كوت» أغبر قديم:

- «الحمد لله.. نفك نفوسنا من تعب السواقي».

جاءت «سعدية» بلوازم القهوة.. وضعت الدلة على الكانون، نقتت حبات القهوة، وفص الجنزبيل، حطته مع البن بعد التحميص في المهراس.

هجدت الدنيا، وارتفع رنين المهراس: «ران.. رين.. ران.. ران.. رين».

سأل أحد أولادها:

- «هو صحيح.. قوس قزح نسيته الشمس في السماء ؟!».

أجابته ببرود:

«قوس قزح.. آها.. طلع يرد المطر.. خلاص ما فيه مطر !»

استفسر:

- «طيب.. وليش ملوّن ؟!»

ردت بضيق:

- «أوه.. ملوّن !!.. الشمس والمطر لونوه !».

قبضت على عروة الدلة بطرف ثوبها، لمست الحرارة في كفها، صاحت:

- «آح.. آح».

-

اندلق قليل من القهوة على القبس فطشطشت، وحرفتها إلى تحت الكانون، على الرماد الدافئ.

حلّق البخار الممزوج بالجنزبيل وحب الهيل.. امتزج بالدخان.

وصبت القهوة في الفناجين، بهدوء، وراحة بال، متراخيين.

(١٣) الخـــط

كان رأي كل الرجال لا ينقط منه الماء.

كل واحد بمسحاة، أو عتلة، أو منقبة، أو زنبيل، أو منثل.. أياد أخرى من الخارج لن تفتح الخط للسيارة، مسافته أربعة كيلو مترات.. مرات في الجبل.. ومرات في طرف مزرعة !

الحكومة يومها بسنة، ولو أنها ستفتح خطا للقرية.. لفتحت للبلد.. أو لمكان السوق.. منذ زمن ! لكنها بعيدة.

هاجت الأصوات، علا الرنين، تشمرت السواعد، عصبت العمائم، وحمل الجميع أشياء من عدة الشغل في أيديهم. مروا وقت طلوع الشمس، ببيت الشيخ.. رمى جبته بالكمر وأخرج من بيته عدة شغل، كثيرة وجديدة.

جاءت القهوة تطفح بالجنزبيل وحب الهيل.. شرب الجميع وشربوا أيضا الشاهي

أرسل الشيخ ثلاثة شباب لإحضار الطبول. طلب من قارعها بمساعدة البعض، تسخينها وشدها، لتملأ بصوتها كل الوديان والجبال.

خرج الجميع من المجلس، يحشدهم الحماس، وتملأهم الهمة.. قرعت الطبول فحمى الحماس.

أخذت الدائرة تكبر، وتكبر، وتتسع.

جاء صوت «أبو جمعان» في المقدمة:

– «خلوا الأولاد يسكتون.. خلوهم يقفون في الوراء».

صاح «مسفر القصير»:

– «يا جماعة.. وحدوا الله.. ورتبوا نفوسكم».

قال واحد:

«اصطفوا اثنين اثنين.. الشمس بتحمى علينا.. هيا».

ونادى الشيخ، في المقدمة، مع «أبو جمعان»، بنزول الشاعر.

نزل الشاعر الممتلئ بالعافية، ألقى بفأسه وسط الدائرة.. لف لفتين داخلها وهو يحدو:

(يا هلا وألفين سهلا بالذي فيهم مروة.. يا للا يا له للا يا له للاله».

ردد الناس القول. جهة اليمين يبدؤون، جهة الشمال يردون.

لفوا لفات، لا تزيد عن خمس، مشوا في طابور واحد طويل رفيع الذيل، في طريق واحد يعوج ويستقيم، يطلع وينزل.

«نقّاع الزير» يمشي جنبا إلى جنب الصف الطويل ويضرب.. يضرب.. يضرب الطبل ضربا متزاحما.

وقفوا عند الحد الأول، خارج القرية، على مسافة ساعة هللوا، وكبروا، وشرعوا في الحفر والتسوية.

جملة الناس تحضر من هنا، لتلتقي بجملة ناس من هناك، وتجيء جملة ثالثة بالفؤوس.. يبسطون ويسوون التراب المختلط بالحجارة الصغيرة، في زنابيل المناقل.

يقفون وقفة قصيرة، يشربون الماء من القرب المحمولة على ظهور الحمير على امتداد مسافة الشغل. حميت الشمس تصب جهنم على الرؤوس الملفوفة بالعمائم. حمى التعب يتسلط آلاف المرات، في البطن الخالي، والقدم الواقفة، والعضل الموزع بين الحفر والتدميس.

البيت القريب، أقرب مسافة، وبيوت جماعته.. يعرفون يكرمون الجماعة الكبيرة.. يعرفون يختارون الذبائح التي لا يمكن لغيرها أن تغذي البطون الخالية والسواعد العاملة.

رمى الشيخ بمسحاته على الأرض، تدحرجت قليلا. قعد إلى ظل شجيرة، فك عمامته المشدودة على رأسه، نفضها في الهواء نفضات قوية فقالت: «صك.. صك» نفض داخلها النظيف نفضتين، مسح وجهه ولحيته وجبينه ببطن العمامة، أشار إلى شاب منغمس في التراب.. لم يلتفت، ناداه باسمه فلبى.. أوصاه بالذهاب إلى الرجال الواقفين مع حريمهم، يعدون الغذاء، وأباريق ماء الوضوء، وغيرها..

أوصاه أن يستعجلهم في تجهيز الغذاء، فالشمس حميت، والتعب يأخذ نصيبه. أوصاه بتجهيز القهوة أولا، وقبل كل شيء.

فك الشاب عمامته المحزومة بوسطه، نفضها، قالت كثيرا من «صك»، نفض قبعته المعفرة بالتراب، كان قد ألقى بمنقبته ومنشله جنب مسحاة الشيخ.. وقف قليلا، خلع نعليه، ضرب في بعضهما البعض ففر التراب، وبقى سواد أغبر مكان رشح القدمين.

رمى بهما للأرض، تقافزتا، انقلبت أحداهما فعدلها، صفع بيديه على جانبي ثوبه، خرج تراب مبعثر. قال للشيخ أنه سيروح لهم

في الساحة. غمض الشيخ عينيه.. وفتحهما، فدارت في رأسه ثلاثة أمور، اشتبكت وتمازجت في عجلة، كما يشتبك الغبار بضوء الشمس.

(أول باب: الآباء والأجداد كانوا يحضرون أحمالهم على الحمير والجمال، والحمير والجمال تمشي في الطريق التي تطأها القدم، والحمير والجمال تصعد الجبال وتهبط الوديان، وتاكل من الشجر وعلف الحبوب وكل أخضر في البلاد.. ولا تحتاج إلى سكة ولا إلى أشياء أخرى).

(ثاني باب: يقولون، السيارات تنفع، وتشيل أحمالا أكبر من أحمال الحمير والجمال ،وتشيل المسافرين من عند بيوتهم إلى مكة، وتجيء بالجاز، وتجيء بالحطب، وتجيء بالحبوب الأمريكية.. بدلا من إحضار هذه الأشياء بالحمير والجمال.. تجيء السيارات وعلى ظهرها الأحمال.. صحيح أن راعي السيارات غريب، ويجيء البلد في أيام معدودة من السنة، ويأخذ أجرة أغلى من التي يأخذها صاحب الجمل، وصحيح أن البعيد أقترب، وابتعد القريب، وتكلم الحديد — وهذه من علامات القيامة — وصحيح أن الدولة تقدر تفتح خط.. لكن..

جاء الخير وقلت البركة.. من يوم أصبح الصديق ينسى صديقه، والرحيم ينسى رحيمه، والقريب يتعادى مع قريبه، وأصبحت الفلوس هي التي تسوى الرجال.. تتحكم في القريب والبعيد.. خرب الزرع وقلت البركة.. وخربت الدنيا.. وأصبح الناس يحبون حنطة أمريكا، والشاهي السيلاني، ويسافرون ويجيئون. ومن يوم صار البترول يأخذ الناس، وينسى الشباب أراضيهم وزراعتهم،

وحق آباءهم وأجدادهم.. وصاروا يتمسخرون بالبلاد وخيرها: كان يجب أن نفتح درب للسيارات، ونجي بمواطير لنزع الماء ورفعه، ونشتري الحنطة الأمريكية، ونسمع أغاني الراديو، ونلبس البفت الأبيض والنايلو.. مرة نضيع.. ومرة نصبح رجالا).

(وثالث باب: بكرة تجي السيارات، وتروح وتجي.. بكرة نطالب الدولة، والدولة غنية.. تفتح مدرسة لأولادنا.. يتعلمون (عجن.. خبز)، ويتعلمون دينهم ودنياهم.. بدلا من رواحهم مسيرة نصف يوم على أرجلهم يدرسون.. بعضهم يمرض وبعضهم يختطفه السيل وقت الوسمية.. ما يجي إلا خبره، وبعضهم يسقط كل سنة.. مرة يروح المدرسة، ومرة ما يروح).

امتزجت الأبواب الثلاثة، بأصوات الحفر والدق في الأرض، علا اختلاطهما بالغبار، وسعال الجماعة، وتشابك حركتهم.

كانت عيناه، بين لحظة ولحظة، تقفان عند حد فأس، أو انقلاب منشل، أو ضربة عتلة.. يذهب الفكر هاربا من باب.. يقف.. ويفتح بابا آخر.

رفع «أبو جمعان» صوته.. كان يبدو للشيخ وكأنه صوت معروف ومحبب، ومصبوغ بالتمباك:

- «يا جماعة الخير.. همّوا.. همّوا شوية.. الشمس تحمى علينا».

دخل بصوته أذني الشيخ. طاف بداخلهما. قام.. فرد عمامته.. برمها برمتين.. مسكها من طرفيها، شدها بقوة، من الزاويتين، على رأسه الأصلع السمني اللامع في سطوع الشمس الحامية.

نفض ثوبه. صفعتين جانبيتين.. مشى إلى فأسه المرمية: هراوة برأسها حديدة جامدة.

جذب طرف الهراوة، جاء إلى جانب التراب المائل، وغمس الفأس.. لم يجذب ترابا كثيرا.

ضرب بالحديدة الحادة في الكومة بقوة، قالت الفأس وهي تخترق بطن الكومة: «تشخ». تأكدت له قوة دخولها في التراب، وسحبها.. اجترت معها كمية أكبر من حجمها بكثير.. سحب.. سحب.. تفرع التراب، مع السحب، من الجانبين.

سمع شكوى تنضب من صوت وقور، رفع فأسه، التفت خلفه. كان الغبار يحجز النظر، فرقعت الفؤوس والمناقب، تهابدت المناثل على الأرض.

جرى الشيخ خطوات إلى حيث بدأ الغبار ينكشف: شايب ضرب قدمه بالفأس.. انجلخت قدمه.. ونزى دم تلبّد بالتراب.

كان الشيخ أول من فزع.. حط عمامته بحركة سريعة، ربطها، بكل ضخامتها، على قدم الشايب.. رفع قدمه إلى أعلى قليلا.

كان الشايب يجلس على مؤخرته.. يمسك بطرف ساقه ويتأوه.. يعصر وجهه وشفتيه.. ويتأوه..

جاء «أبو صالح» بأخواط خضراء من نبات العثرب، المتناثر كما القضب، مضغه تحت أسنانه، تقاطر ذوب العثرب.. سكبه من فمه وهو يقضمه بعجلة.

فك عمامة الشيخ.. قال الشيخ:

- «على مهلك.. على مهلك.. الرجل يصيح من الوجع !».

رد «أبو صالح»:

- «ولا يهمك.. العثرب دواء الجروح».

حضر شاب، اندفع نحو نبتة عثرب مخضرة، قطف ملء يديه مضغ.. مضغ، صبه بلعابه وحموضته مكان الضربة.

تجمع الحفارون.. عالجت وجهات النظر الحالة.. قالوا.. نحمله إلى البيت، قالوا.. نوصله مكان بيوت الغداء الذي قارب أن يجهز.

قالوا.. نضعه في ظل الحجيرة، ونسقيه ماء.

جرى شاب إلى حمارة ترعى، محملة بقربتين مطليتين بالقطران، ممتلئتين بالماء..حط شدهما، رفع ركبته، وأنزل القربتين إلى الأرض.

حمل واحدة على كتفه، كما تحملها النساء، لكن بخفة وجرأة. أخذ طاسة ،قال الماء وهو ينفرط في الطاسة: «تشاخ..» اهتزت الطاسة في يده قليلا، وتمكن من تقديمها للشايب، قال:

- «لا والله إلا الماء.. مداوى جرح الكبير..خذ.. أشرب.. أشرب.. الشمس حامية».

ناولها بيد متمكنة، يمسك بيده اليسرى على رقبة القربة، يمنع انفراط الماء، أمسك باليمين على رباط فم القربة.. لواها لوية.. لويتين..شدها، وسكت تقاطُر الماء من التسرّب !

كان الشايب يتكئ على جنبه اليمين، ثنى ركبتيه، سحب قدمه

المضروبة: ملفوفة بعمامة الشيخ.. تجمد ذوب العثرب..تعدى رباط العمامة.. فظهر.. كما يظهر الحناء الأخضر المتماسك.

قليلا، وصاح الشيخ:

– «الله يعطيكم العافية».

رموا بكل ما في أيديهم.. حطوا عمائمهم، هبت أصوات العمائم في الهواء: «صك.. صك».

تصاكعت بغبارها وعرقها وتعبها. كان من المستحسن أن تصحب العرضة إيقاع الطبل، لكن التعب لم يترك جهدا آخر.

ضرب ناقع الطبل طبلة، ضربه ضربا متشابها خامد الرتابة، علا رنينه، حتى سمعه الذين يجهزون الغداء.

تقدم «مسفر القصير» و «أبو صالح».. أمسكا بيد الشايب، أوقفاه، أخذ يطأ بقدمه الأرض وطئا خفيفا، يمس بها وجه الأرض قليلا ويرفعها.. وهما يسندانه من الجانبين.

كان قد خف ألمها، وتجابس الجرح قليلا.

قال «مسفر القصير» وعمامته تتذيل من على كتفيه:

– «على مهلك وأنا أخوك.. الله يعطيك العافية».

قال «أبو صالح»:

– «لا والله سلامة.. الله يعطيك العافية يا رجل».

قال الشايب:

– «آه.. آه.. ضاع الشباب.. يبغى لي شهرين حتى تطيب.. ويا

الله العافية».

رد «أبو صالح»يريد التخفيف عليه:

- «لا..لا..لاتقول.. إن شاء الله قريب وهي طيبة».

تواردت كثير من عبارات التخفيف:

- «سلامتك يا بو جار الله».

- «ما تشوف إلا العافية إن شاء الله».

- «ذا الحين نروح.. وتستريح على طول».

- «الله يخفف عنك».

- «في رجل العدو.. إن شاء الله».

- «ما حصل إلا كل خير».

- «إن شاء الله..كلها يومين وتطيب».

- «الحمد لله.. ما جت في عظم الساق».

- «ربنا ستر..خلاص.. الحمد لله».

تقاطروا، بغير نظام إلى مكان الغداء.

في الطريق، قال «أبو صالح»:

- «الله.. يا ذا الزمان.. بكره يسير الحديد من هنا.. وينقل لنا كل ثقيل.. الله الله !».

علق واحد:

- «الدنيا.. يا بو عبد الله.. تغيرت».

قال الشيخ:

- «لازم نساير الزمان.. وصاحب المثل يقول..إذا ما طاعك الزمان فطيعه».

استراح «أبو جمعان» للقول، وردد:

- «على قدنا.. وبجهدنا.. والله يعين.. مد رجلك على قد لحافك».

راح الشباب يتصورن غدهم.. لو كانوا يسوقون السيارات، وهي محملة بالأرزاق، والنساء والأطفال، وكذلك الشيبان يرقبون السيارة من فوق البيوت.

وصلوا مكان الغداء.. وجدوا في انتظارهم أباريق كثيرة مملوءة بالماء للغسيل والوضوء، تناثروا حول البيوت، يبولون ويتوضأون.

تفرقت بقع من آثار الماء.. بدت الساحات كلها كأنها ظل شجرة كبيرة تسطع من فوقها الشمس.

صلوا الظهر، خلف الفقيه الذي كان ينتظرهم. جاء الشباب في المجلس الكبير، بعدد من الدلال الفائضة بالقهوة ورائحة الجنزبيل وحب الهيل.

فاحت رائحة اللحم والمرق. كانت البطون تتهيأ لها بكل جوفها. بعد قليل.. دخل الرجال بستة صحون، كل رجلين يحملان صحنا محفوفا بكسر الخبز.. في الوسط طاسة كبيرة تمتلئ بالمرق. تحوم على سطحها حبيبات كثيرة من الفلفل الأسود، وقطع البصل

الصغيرة البيضاء.

قال المضيفون:

- «الله يحييكم.. هيا أردوا».

تقاربت الزلف، كل زلفة على صحن. كانت السعة كبيرة وكانت رشفات اللقم المملوءة بالمرق تبدد السكون والكلام.

لم يخرج أحد ليغسل يده، انتظروا قليلا..كل رجل يمد يمينه على ركبته اليمنى.. يدلّي أصابعه نحو الأسفل، ويقعد إلى جانب الجدار.. حتى يجيء اللحم.

مرة أخرى قال المضيفون:

- «الله يحييكم.. أردوا».

كانوا قد وضعوا للشايب صحنا صغيرا، ممتلئا باللحم السمين.. بلل الدسم كل الأيدي، شبعت البطون، وجاء الأولاد بأباريق الماء ومسحوق الصابون. راحوا يصبون على الأيدي، والأيدي تفرك الدسم.

قال الشيخ، وهو يغسل يديه، وقد فركهما بقوة:

- «هذي نعمة من الله».

ما كان الشيخ يريد هذا الرد.. لكنه قال:

- «الوسمية أثرت في الرعي.. وفي الغنم.. في كل البلاد».

قال واحد، حاول تخليل أسنانه برؤوس أظافره، لولد يقف أمامه:

- «روح.. وأنا أبوك.. هات عود من المقشة أتخلل به !».

كان أبو جمعان قد جلس متربعا، وقد أخرج علبة التمباك.

قال «أبو صالح» للمضيفين:

- «يا جماعة الخير.. ما و ديتوا غداء من اللحم لسعيد الأعمى؟».

وأضاف:

- «أعني أبو مسفر !».

أجابوه بنعم.. أرسلوا له قبلما يتغدى الجميع.

جاء الشباب بالشاهي، على صحن وسيع كبير.. فناجين من «عقال فيصل»، وفناجين من «ساق سلوى».

قال الشيخ:

- «يا جماعة الخير.. بكرة في الصبح بدري.. قبل طلوع الشمس.. إن شاء الله.. نسرح شغلنا بدري».

... راح الناس إلى مشاغلهم بعد الظهر.

... مضت ثلاثة أيام.. كان الحفر والتسوية في الأرض والجبل، امتد طويلا.

قال البعض:

- «لا.. ما بقي إلا القليل.. كلها ثلاثة أربعة أيام ويصل الخط بيوتنا».

قال آخرون:

- «لا تتهاونوا.. الأرض قاسية، وتحتاج لحفر قوي.. تحتاج لأيام أكثر من أسبوع».

من اليوم الرابع.. جاء واحد من السفر.. مر على الحفارين.. سلم عليهم سلاما حارا مؤكدا رضاه وتشجيعه، كانت له دراية قليلة بأمور السيارات.. قال:

- «يا جماعة.. كلكم بركة وخير.. وشغلكم يرضي العين. لكن أنا أشوف الخط ضيق.. ويحتاج إلى وسع في العرض!».

تقاطر نداء متشابه:

- «يا بو صالح.. يا بو صالح.. الله يبشرك بغايبك».

كان «أبو صالح»مغبرا إلى قمة رأسه.. أقام جذعه المنحني.. رفع رأسه.. طفحت في وجهه ابتسامة، قال ملتفتا إلى ابنه «صالح «مقبلا نحوه:

- «حيا الله الغايب.. يا هلا.. يا هلا.. جيت في أحسن وقت.. يا هلا».

قبّل «صالح» أباه في الخدين، وواحدة في أعلى الجبين، وقبّل من لم يقبلهم قبل السلام، لكن بدون واحدة كبيرة في أعلى الجبين. قال «أبو صالح»لابنه:

- «ذا الحين.. أنت تعبان من السفر..لازم تروح البيت تسلم على أهلك.. وبكرة إن شاء الله نرسل سعيد بن أحمد على جمله.. يحمل عفش السفر من السوق.. بعدها.. الله يعطيك العافية.. تجي

تشتغل مع جماعتك».

استأذن «صالح»، مشى على قدميه القويتين إلى البيت، لم يكن أحد في البيت قد علم بمجيئه.. استقبلته زوجة أبيه، ابتهج إخوانه الصغار، أخوه (أحمد) جلس إلى جانبه يسأله عن أشكال البيوت والسيارات في مكة.

** ** **

عند وقت آذان الظهر، في اليوم الرابع، قال الشيخ:

- «الله يعطيكم العافية.. الله يعطيكم..».

ضرب الطبال على طبله، رموا بكل ما في الأيدي، وراحوا لبيوت مضيفة أخرى قريبة من نهاية الخط المحفور.

بعد الصلاة، بعد شرب القهوة، بعد الغداء، في وقت شرب الشاهي..قال الشيخ:

- «يا جماعة الخير.. العلم خير.. بكرة بنسرح في الصبح نكمل شغلنا، وكلها أيام قليلة.. إن شاء الله. ويصل الخط بيوتنا.. والخط سويناه لمصلحتنا كلنا.. الغني والفقير.. ولازم نتعاون جميع.. القوي والضعيف.. ونحن مثلما تشوفون.. بضايقنا في الخط بعض البلاد المزروعة..».

علق «أبو جمعان» بتأييد:

- «أيو الله.. نعم كلامك صحيح!».

سحب شفطة قوية من سيجارته.. حجبت لحيته وكل وجهه. كان «أحمد بن صالح» يغرز عينيه بتحديق واضح في وجه أبو جمعان.

واصل الشيخ:

- «مثلما قلت لكم.. فيه بلاد فيها زرع.. تضايق الخط.. ولازم نتشاور ونشوف ايش الحل في رأيكم ؟!».

أضاف بعد وقفة قصيرة:

- «وسلامتكم !!».

عدل من جلسته المربعة، مد كفه اليمين إلى عمامته، زحزحها عن جبينه.

قال (أبو صالح):

- «سلمت.. الخط.. خطنا جميع.. مثلما قلت.. وانحن تعبنا وإلى الساعة بعد نتعب..لكن الواجب علينا نضحي. نفكر كلنا.. ونتشاور قبل ما نحط أيدينا فيه.. وأنا في رأيي إن راعي البلاد اللي فيها زرع.. الله يعينه.. لازم يغمض عينه شوية.. هو وأنا والثالث والرابع وكلنا..».

قال «أحمد بن صالح»،وهو يجهز حاله للقول في كل لحظة:

- «صحيح..لكن كيف يروح جهد الواحد منا.. في الوسمية والتعب؟!..كيف يروح زرعه وعرقه خسارة. عشان الخط ؟.. أنا أشوف ان المسألة ما هي مناسبة».

رمى «أبو جمعان»، بنترة قوية من ذراعه، بعقب السيجارة من شباك البداية إلى الساحة.. تنحنح وقال:

- «انحن قلنا.. كلنا عندنا زرع.. وعندنا بلاد.. ولابد الخط يعدي على الكثير منا.. ولا بد نضحي».

كان الشيخ يجهز ردا درسه مع نفسه.. قال:

- «يا جماعة الخير.. كل عقدة لها حلال.. غضب الله على الشيطان.. والشيطان مع مناقض الجماعة..أنا أشوف ان الذي بيعدي الخط من زرعه.. الله يخلف عليه.. نشوف كم يسوى الزرع والعلف.. وندفعه له تعويض.. وخلفه على الله».

دخلت دجاجة بيضاء من باب المجلس، كادت تبول على طرف فراش الخصف. اقترب ولد وحذفها بحذاء، فخرجت.

قال «أبو صالح»:

- «يا شيخنا.. رأيك سليم.. الله يطول في عمرك.. لكن نخيره.. إن كان يبغي دراهم.. وإلا يبغي نجمع له، ونكيل له حب وعلف.. وهو المخيّر».

قال «أحمد بن صالح»:

- «نعم.. وكفاه الله شر الحصاد والدياس.. وبلاش من روح.. تعال..».

استحسنوا الرأي.. راحوا يعددون البلاد التي سيعدي منها خط السيارة، ويقدرون لها مقدارا معقولا من حق الحنطة والشعير والعدس والعلف، قالوا.. يا فلان كذا.. ويا علان عليك كذا.

امتد الأمر في صدر «أحمد بن صالح»، لم يرضه شيء، التعويض الذي سيأخذه عن زرعه لا يمكن أن يعوضه، ولو كالوا له ضعف محصوله.. احتد، زفر في الركن الذي يقعد فيه، قال، بحدة غير منضبطة:

- «يا جماعة.. يا جماعة الخير.. اصبروا.. اصبروا.. صلوا على النبي.. اصبروا.. لا تعدوا ولا تحصوا».

التفتت إليه العيون كلها، لمحته بدهشة وانتظار.

قال «أبو جمعان»:

- «يا بن صالح.. ليش تخرب الرصة.. كلامنا واحد.. ورأينا واحد.. والحل معقول ومناسب.. ويش بعد تبغي ؟!».

قال الشيخ، باندهاش وحذر:

- «يعني ايش الحل في رأيك يا أحمد ؟!.. إحنا قلنا رأينا.. ووافقنا جميعا على الصواب.. عندك حل ثاني ؟!».

قال «أحمد بن صالح»، والكلام ينط من فمه:

- «يا شيخنا.. الأمر ما هو عشاني لوحدي.. فيه ناس أيتام.. وأنتم تعرفون حميدة.. بلادها قليلة، وزرعها قليل.. والخط بيجى من حقها !».

قال «أبو جمعان» في استنكار:

- «يعني يا بن صالح.. الجماعة كلهم يظلمونك لوحدك.. ويظلمون اليتيم لوحده ؟!».

رد «أحمد بن صالح»:

- «أنا ما قلت تظلمونا.. لكن أقول.. دوروا على حل ثاني !»

قال «مسفر القصير»:

- «يا بن صالح.. أنت وحميدة.. وغيركم.. يعني.. حتى أنا..

الخط بيعدي من زرعي.. والحل اللي قاله الشيخ.. هو الحل المناسب لنا كلنا».

قال «أبو جمعان» بحسن صدق:

- «والله العظيم.. يا جماعة الخير.. لو جاء الخط من زرعي.. ما أقول ولا كلمة.. ولا أخرج عن رأيكم.. ولو على واحد من أولادي».

رد «أحمد بن صالح»:

- «يعني.. علشان ما جاء الخط من حقك.. تقول وتقول ؟»

ارتفعت الأصوات من كل جانب، خشى أن يحدث صدام بين «أحمد بن صالح» و«أبو جمعان».. قال مسفر القصير:

- «تعالوا.. ندعي حميدة ونسألها.. ايش رأيها ؟».

أرسلوا ولدا ليستدعي «حميدة» من مجلس النساء.. خرجت وهرولت بدون حذاء إلى باب مجلس الرجال.. دخلت، والعيون ترقبها.. قالت:

- «سلام عليكم يا جماعة».

قالوا، كلهم:

- «وعليكم السلام».

وقفت، عند مدخل الباب، قرب الأحذية.

قال «أبو صالح»:

- «تقدمي.. تقدمي واقعدي».

تقدمت، بخطوة واحدة.

قال «مسفر القصير»:

- «يا عيال.. أخرجوا العبوا.. ووسعوا للكبير».

خرج نفر قليل من الأولاد ،قعدت (حميدة)، ثنت ركبتيها تحت مقعدها، وقعدت. غطت بقية جسمها بالشرشف من فوق الثوب.. كان الشرشف الأبيض الكبير (أبو خط في الطرف) يغطي رأسها، ورقبتها وبقية الجسم.

قالت، مستفسرة:

- «دعيتموني.. خير !!».

قال الشيخ:

- «خير إن شاء الله.. كله خير.. العلم وما فيه.. أنتي تعرفين.. الجماعة كلهم يشتغلون في حفر الخط.. والخط لازم يعدي على بعض البلاد.. وفيه بلاد كثيرة مزروعة.. بيعدي منها الخط.. منها وصلة مزروعة من حقلك».

شرح لها رأي الجماعة، وكيفية التعويض.. ملأت سمعها بحذافير الكلام، وضعت يدها على عود كبريت أمامها، أخذت ترسم به على الحصير، بعد قليل.. قالت:

- «يا جماعة.. أنتم تعرفون.. بلادي قليلة وزرعها ما يكفي مع تعبي.. يعيشنا من الحول للحول !.. لكن إذا كان التعويض كما المحصول.. فأنا أقول الله يكثر خيركم.. وأنا بنتكم.. وبكرة أستفيد من الخط مثلكم».

كان الهدوء يخيم ويخيم، والعيون تصمت، وتتكلم، وتصمت. الكل كان يجد ردا، تقابلت الخواطر، قال «أبو جمعان»:

– «بارك الله فيك.. رأيك أحسن من رأي بعض الرجال».

قال «أبو صالح»:

– «يا بو جمعان.. الله يهديك.. عرفنا وماله لزوم نبحث في الكلام.. حميدة قالت ووفت.. والله يخلف عليها ويبارك».

قال «أبو جمعان»:

– «لا والله.. لكن أبغي أوضح الصواب».

قال «أحمد بن صالح»:

– «أنا بعد أشاور نفسي.. وأشوف سعيد الأعمى.. يمكن يشوف له مشورة ثانية».

قال «أبو جمعان»:

– «طيب يا بن صالح.. نرسل واحد يدعي لنا أبو مسفر.. وقدامنا تشوف رأيه».

انطلق ولد إلى بيت العم سعيد الأعمى، وجده نائما، فقال لزوجته:

– «يا عمتي سعدية..الجماعة أرسلوني..آخذ بايد عمي سعيد، ونروح لهم.. لازم تصحيه».

سمع العم سعيد الأعمى الصوت، نادى زوجته:

– «أسمع كلام.. مين اللي جاء يا سعدية ؟!»

اقتربت من سريره المصنوع من جدائل السعف، قالت بصوت عال، كأنها تتكلم مع أصم:

- «الجماعة أرسلوا.. يبغونك تروح لهم».

تحرك في سريره.. ولم رجليه الممدودتين.. قال السرير: «طرق.. طرق»، استوى في جلسته، وطلب منها ماء.. جاءت بالطاسة.. شرب.. ارتوى.. تقاطر الماء فوق لحيته وثوبه.. مسح شفتيه.. مد يده عند موضع الرأس في السرير، قبض على عكازه الطويل.

نادى الولد، وأمسكه بيده اليسرى، وقف.. وبحث بقدميه عن فردتي الحذاء، فوجدهما تحت السرير.. لبسهما بلين.

تهيأ للخروج.. قالت زوجته:

- «أصبر يا سعيد.. خذ العمامة هذي نظيفة.. حطها على رأسك».

ألبسته، وضعت الجبة الصوفية الطويلة البيضاء على كتفيه.

قالت للولد:

- «على مهلك.. وأنا عمتك.. تعالى من الطريق اللي تحت اللوز».

قال الولد:

- «طيب..»، وأمسك بشمال العم سعيد الأعمى وهو ساكت.

كان يعلم أن العم سعيد الأعمى سيتحدث معه حديثا كثيرا في الطريق.. قال العم سعيد:

- «يا ولدي.. تشتي عيش فيك عاثر.. والا عيش فيك راح ؟!»

عرف الولد أنه دخل في اختبار مع العم سعيد الأعمى.. عرف كيف يلف ويدور ويقلب الكلام.. ويرد عليه بدون ورطة.. قال:

- «يا عم سعيد.. اشتي عيش فيك راح».

رد العم سعيد الأعمى:

- «شاطر.. من علمك ؟!»

قال الولد: - «ما أحد علمني !»

أحس بالورطة، كان يكذب، سمعها كثيرا، يعرف ردّها، لكنه لا يدري ماذا تعني؟

قال العم سعيد الأعمى، وهو يمدّ عكازه فيضرب في الطريق:

- «طيب.. يا ولدي.. أصابعك صغيرة ؟؟ بعد تطلع فقيه!»

لم يعجبه التنبؤ بالفقاهة، فهو يكره الفقيه.. الفقيه اختبره ذات يوم في سؤال عن آية في القرآن، قدام الجالسين، وعجز عن الرد.. ولأن الفقيه لحيته طويلة، ويكثر من الأكل، ويطلب كثيرا أباريق الوضوء.

قال الولد:

- «ما أحب أكون فقيه.. أحب أسافر وأتعلم».

قلّب العم سعيد الأعمى موضوع الحديث، راح يسأله بتفصيلات كثيرة عن مجلس الجماعة، وعن ماذا يتحدثون. كان الولد يرد باختصار، ويقول:

- «لما تصل..بعد تشوف كلامهم».

سأل العم سعيد الأعمى:

- «وين وصلنا ؟»

قال الولد:

- «تحت بيت أبو جمعان».

عرف.. أنه اقترب من مكان الجماعة، مشيا خطوات..اجتازا الساحة، ودخلا.

وقف الجماعة..تفاسحوا لإخلاء مكان «لأبو مسفر».

خلع نعليه، وقال:

- «السلام عليكم»

ردوا، كلهم:

- «وعليكم السلام».

تقدم الرجال.. وكلهم يقول:

- «تعال هنا..»

وأخذه الشيخ إلى جانبه.

قال الشيخ لسعيد الأعمى:

- «العلم خير يا أبو مسفر..أنت تعرف..الجماعة.. يشتغلون في فتح الخط.. والخط منفعة للجميع..».

أكمل له الحديث، سأله عن رأيه في البلاد المزروعة..

قال «احمد بن صالح»:

- «يا بو مسفر..نبغي رأيك».

كانت حميدة جالسة ماتزال تسمع كلام الرجال، قال العم سعيد الأعمى:

- «أنا أشوف رأيكم في محله.. وكلامكم صواب.. واحمد بن صالح.. مثله مثل باقي الجماعة..ومثل حميدة.. ولا فيه رأي غير هذا».

بلغ الحنق والضيق بنفس «أحمد بن صالح» مكانا كبيرا، واحتاج لتدخين سيجارة من التمباك، وّ لويطلبها من «أبو جمعان». لكنه لم يجد فرصة لطلب ورقة محشوة من «ورق الشام»، قرر حبس نفسه.. لو تموت !

تنهّد، وقال بصوت مبحوح..معترض:

- «أنا ما يناسبني هذا الكلام كله.. صحيح فيكم الخير والبركة.. لكن رأيي.. وقت الزرع والوسمية.. ما تعدي السيارة.. ووقت ما تخلى الأرض من الزرع نخلّي السيارة تعدي.. أهل الجنوب كلهم.. من غامد إلى زهـران.. ما فيه واحد يرضى على زرعه بالخطا».

الجميع يعرفون مدى شذوذ رأي (أحمد بن صالح)، والكل يعرف مدى عناده ومعارضته في سبيل أمور لا استقامة فيها.

راح البعض يحك في رأسه، والبعض يخلل لحيته، والبعض ينظر برفض إلى حصيرة الخصف.

قامت (حميدة)، وكما تمشي الدجاجة الملفوفة بالريش الأبيض، مشت على كل الأحذية المترامية عند مدخل الباب الخشبي العريض.. لم تتكلم كلمة، راحت إلى مجلس النساء.

أمور كثيرة في رأس «أحمد بن صالح»:

(بكرة.. لو راح يشتكي عند الحكومة.. يقاطعونه أهل القرية.. يحرمونه من المنفعة العامة.. يحرمونه من المساعدة في حالة الميت.. والعروس.. وطايح البير.. وطينة البيت.. وكل الأمور الجماعية. بكرة لو راح يشتكي للحكومة.. الحكومة ايدها قوية.. تجرجر الجماعة واحدا واحدا.. تأخذ أقوالهم واحدا واحدا.. تعطلهم عن شغلهم.. ووسميتهم.. وزرعهم..

بعدين ؟! يكون الحق معهم.. ويرمونه هو في السجن.. وهو لا يطيق الحبس ليلة واحدة).

جاء الشباب بصينية مستطيلة، مرصوصة بفناجين الشاهي، صبوا الشاهي من الإبريق الكبير المدهون باللون الأخضر.. وزعت الفناجين.. من عند الشيخ في اليمين إلى عند آخر الدائرة، عند العم سعيد الأعمى، إلى شمال الشيخ.

تناول الشيخ فنجان (عقال فيصل)، ومد يده به للعم سعيد الأعمى.

قال الشيخ:

– «خذ يا بو مسفر.. الشاهي».

قال العم سعيد الأعمى:

- «هات.. سلمت !»

قبل أن يمسك به بين أصابع يده اليمنى، وكفه الشمال، رفعه إلى فمه، شفط منه شفطة قوية، قالت: «شف.. ف.. ف».. حطه في كفه الشمال، أمسك بعروته الصغيرة.

كان «أبو جمعان»، منذ سمع قرقعة الفناجين في الصحن قادمة من الساحة، قد أخرج علبة التمباك الأخضر، وراح يوضبها شارد الذهن، بعيد عن لذة الكيف، لكنه أشعلها وامتص قطرانها ودخانها.

لم يأخذ «أحمد بن صالح» فنجان الشاهي، كان يفلهم يدخل فكرة ويطرد فكرة.. قال:

- «يا جماعة الخير.. إذا ما كان عندكم حل ثاني.. فمعونتي بالله.. خلاص.. الله يخلف عليه.. لكن أنا ابغي نصف التعويض فلوس.. ونصفه حب وعلف».

بسرعة قال «أبو جمعان»:

- «يعني رضيت يا بن صالح.. لو كان من أول.. وليش نعقد الأمور ؟!»

سكت «أحمد بن صالح» كان ينتظر من الشيخ الرد.

قال العم سعيد الأعمى:

- «خلاص.. يا أحمد.. ما للواحد إلا جماعته.. طار في السماء والا وقع في الأرض.. يعني يا أحمد مالك إلا جماعتك أحسن لك!»

** ** **

عشر قيلات:

من الصبح، قبل شروق الشمس، إلى وقت آذان الظهر.. كان الشغل مستمرا في حفر الخط.. اقترب رأس الخط من أطراف الساحات.. وقعت صعوبات في سفح الجبل.. تغلب عليها الحفارون بالعتل والمناقب، اعترضت هضبة كبيرة وسط الخط، تعاونوا، وقلبتها الأيدي بقلب واحد شديد.. قال الشاعر وقتها:

- «يا معلم.. علم القرية.. هضية الوادي قلبناها».

لحقت الترديدات:

- «قلبناها».

- «أيوه قلبناها».

أرسلوا إلى السوق، يطلبون راعي السيارة ليجئ بسيارته ويجرب الخط. جاء بسيارته الحمراء: صندوق خمسة أطنان، لها مزمار في المقدمة، لو شد حبله من الداخل.. قال: «طاط.. طاط..».

احتشد الصندوق بالراكبين، وصاح السواق:

- «تمسكوا بأيديكم.. لا تطيحوا..».

قفز الأولاد على الجوانب، خاف السواق، طلب من معاونه طرد الأولاد.. قال الأولاد:

- «أنت معاون.. ما تعرف تسوق !».

وقالوا:

- «ما هي سيارتك !».

اغتاظ السواق.. أوقف السيارة، فتح باب المقدمة، توافدت العيون إلى داخلها العجيب: (ساعات، ودوائر، وحاجات.. سبحان الخالق !).

نزل، حدق في الصندوق المحتشد، قال:

- «يا سفان.. الله يهديكم.. أقعدوا كما الناس.. لا تطيحون..».

- «لا.. لا تخاف».

- «الله ! ليش تخاف علينا».

قال ولد:

- «نبغيك تضرب بوري.. طاط طاط !».

انتظر الناس وسط القرية، لمحوا السيارة من أول ما دخلت الخط، كانت تتوقف قليلا، وتتحرك قليلا، وتميل إلى الشمال، وتميل إلى اليمين.

علّمت السطوح بالنساء كالغربان، وبالأطفال.

وصلت السيارة، تسبقها رائحة «البنزين».. حيا الشيخ والواقفون راعي السيارة، عزموه على العشاء احتفالا، ذبحوا الخرفان.. جاءوا بالقهوة والشاهي، والقهوة والشاهي، طول الليل.

قال الشيخ لراعي السيارة:

«هاه.. بشرنا.. كيف الخط ؟! إن شاء الله طيب !».

رد راعي السيارة:

«والله طيب.. لكن يحتاج لشوية تعديلات..إن شاء الله

تصلح».

سأل العم سعيد الأعمى عن السيارة والخط.. قالوا إن السيارة وصلت، والخط طيب، والحمد لله.

سألت النساء عن أكل السيارة وشرابها.. قالوا لا تحتاج !

كانت السيارة تقف وسط الساحة، والأولاد يطلعون.. ينزلون.. ينطون فوق.. يقعون تحت.

خرج «أبو جمعان».. نهرهم:

- «يا عيال.. ابعدوا عن السيارة كذا، ولا تلعبون».

رد ولد:

- «إنت وش عرفك ؟!»

قال ولد:

- «عيب.. هذا أبو جمعان.. اسكت».

تمنت كثيرات من النساء والبنات أن تكون لهن صلة بالسواق..

تمنى كثير من الشباب أن يتعلموا السواقة..

تمنى كثير من الرجال ركوبها في السفر..

تمنى البعض السفر.